إبراهيم معوض

النورج والكتاب

رواية

طبعة أولى إبريل 2019

بطاقة الكتاب

مسابقة شاعر / أديب النيل والفرات
الدورة الرابعة – إبريل 2019
الكتاب الفائز بالمركز الثانى م
فرع الــروايـــــة

عنوان المؤلف	النورج والكتاب
المؤلف	إبراهيم معوض
التصنيف	رواية
رقم الإيداع القانونى	2019 - 7880
رقم الإصدار الداخلى	377 الطبعة الأولى إبريل 2019
عدد الصفحات	134 صفحة

مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع
ثورة مصرية تشرق إبداعاً على الوطن العربي
رئيس مجلس الإدارة
ناجى عبد المنعم
رخصة مزاولة مهنة: 58365 – سجل تجاري: – 13242 / 2017 – بطاقة ضريبية: 35—01—572
عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018
هاتف: 01011256943 – 01116202218 – 01202541192 تليفاكس: 020554372901
nagyegy200064@gmail.com النيل والفرات
alnilwaalfourat@gmail.com alnilwaalfourat
المقر الرئيسي: ج.م.ع محافظة الشرقية – العاشر من رمضان – مجاورة 13 – امام سنتر الـ13 – عقار 304

الاهداء

- إلى كل أبناء الحواديت في كل قرية عربية..

- إلى النورج والكتاب.. الفأس والقلم..

- إلى أجساد غابت تحت الثرى ولكن أرواحهم مازالت باقية..

- إلى كل أستاذ علمنى حرفاً ولم يبخل علىّ بكلمة..

- إلى أم الأولاد وأولادها..

- إليك يا أمي...

إبراهيم معوض

لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُون

(سورة الأنبياء الآية 105)

(1)

حاول الأب كثيراً استلهام روح الجد في ترتيق ثوب اللمة المهترئ، فى حين كان الكل يقفز خارجاً منها، فهاهم الأبناء قد تركوها واحداً تلو الآخر، انشغل كل منهم بحاله وعمله ولم يلتفت ناظراً خلفه، ولم يأبه بتمزق الشمل، أثقلته الهموم بخيبة أمل كبيرة، يشعر وكأن أيامه الماضية كانت عبثاً، فكيف نسيت بكل هذه البساطة، كيف استطاع الأخوة وأبناء العمومة نسيان الجد وجلسته ودكة النورج القديمة والعباءة البنية؟ قام على الفور وفى مقلته دمعة معلقة تخشى السقوط فيسقط معها آخر عمود من أعمدة اللمة، يرنو إلي فراش ولده الوحيد، يظن أنه نائم ولكنه يراقبه عن بعد وهو يفتح حافظة ملابسه ويخرج العباءة القديمة من كيس بلاستيكي ضاع لونه، يتحسس ملمسها، ثم يصرخ منادياً عليه بصوت متهدج أجش غابت عنه رقته المعهودة قام على الفور ملبياً، طرح العباءة أمامه وأمره أن يرتديها، استجاب بآلية وهو يرنو بخوف شديد إلى اتساع حدقة عينيه وكأن الغضب قد أزال الرقة عن وجهه بمكشط من حديد،

وضعها على أكتافه وتركها تنسدل على الأرض يغرق فيها وكأنه يرتدى صفحة السماء..

ظل نظره الخائف معلقاً على وجهه فلم يلتفت إلى التمزق الذى أحدثه الزمن فى جوانبها، ولكن الأب حين رآه طلب منه خلعها وأمره بالذهاب، هرول مسرعاً وكأنما يفر من الأسد، وضع رأسه بين الوسائد يستجلب النوم ويدعو الله ألا يرى وجه أبيه هكذا مره أخرى وكلما قتله الفضول ألقى بصره عليه من فرجة الباب التى لم يغلقها بعد، مازال يمسح العباءة بكفه ويضم تمزقها ويتركه مرات، ثم ارتداها وخرج صوب البهو وغاب خارج حدود رؤيته بعدما أطفأ كل أنوار المنزل حتى أمسى كتلة من ظلام، وعندما سمع صوته ينطلق بهمهمات عصبية خافتة علم أنه يقص أحاديث اللمة للجدران.. بعدها غابت عيونه داخل قفص النوم..

******

يقوم من فراشه، يتحرك بخطى خائفة فارداً ذراعه أمامه كى تقوده في الظلام وكلما اقترب من البهو تبعثرت الهمهمات تدريجياً، حتى دلف الباب يلملم بقايا شجاعته منادياً عليه: أبى أبى؛ لكنّ صوته قد ذاب

في صمت المكان، وغابت أنفاسه حين شعر ببرودة الوحدة تسرى في أوصاله وهو يمرر كفه على الحائط باحثاً عن مفتاح النور، وبمجرد التعثر به إمتلأ المكان بنور كثيف لا تتحمله العيون التى ألفت الظلام، خبأها بكفه حتى إعتادت، ألقي بصره المجهد بين النور والظلام على دكة النورج القديمة فلا يجد له أثراً، إلا أن عباءة جده ملقاة فوقها، هرع نحوها يتحسسها بكفه فشعر بحرارة جسده تملؤها فجال ببصره فى كل جوانب البهو دون جدوى فقفل عائداً وكلما تباعدت أقدامه نحو الغرفة تعود الهمهمات القادمة من البهو، وكلما اقترب منها تختفى، عكس كل قوانين الكون، عاد إلى فراشه تمدد داخل جسده الذى لم يفارقه بعد، وكأنه ينسكب داخل أحشائه كسائل حار يزيل عنه البرودة، فاستيقظ على صوت الهمهمات المستمر المنبعث من البهو، اطمئنت نفسه إلى أن وجوده مازال حقيقة كي يعاود النوم..

*****

ما أن رفع جفونه المطبقة منذ عهد بعيد حتى رآه يحلق فى فضاء الغرفة كطائر أبيض، يدنو منه حتى شعر بحرارة أنفاسه، رفع كفه يتحسس ملامحه، فانطلق بهمهمات موجهه نحو أذنه: ولدى الحبيب

ها هو الجسد يتأهب للرحيل كي تنعم الروح بالخلود، أوصيك بالعباءة خيراً، ففى خيوطها انسجام بين الماضى والمستقبل، ارتدها كلما سنحت لك الفرصة، تق جلدك من زيف المدينة، وتق روحك من ثقل المادة، هى البقية الباقية من جذر أنت فرعه، فإن ذاب وأكله النمل سقطت كسقوط سليمان من على منسأته، تمسك، تشبث، تجلد، ثم عاود التحليق حتى استقر به المقام مبتسماً خلف برواز زجاجي عليه شارة سوداء وتاريخ قديم..

(2)

يقوم من فراشه بجسد معبأ بالخمول والخدر، ولكنه نجح أخيراً في نزعه بالكاد من بين براثن نوم أشبه بالموت والحساب، يضع رأسه تحت وابل الماء المنساب من الصنبور حتى تدب الحياة فى أركانه من جديد، يرتدي ملابسه، يلقى السلام على المبتسمين داخل البراويز، يغادر البيت وكأنه يفر من الوحدة فيه إلى صخب الطريق، يملأ أذنيه منتشياً بأصوات السيارات، يتفحص الوجوه الآدمية بحب وإقبال، يلقى السلام على المارة والجالسين، يخرج المفتاح من جيب سرواله ويفض القفل الكبير، يرفع الباب الحديدى فيحدث صريراً مزعجاً، ينفض التراب عن البضائع كي تبدو أمام العيون ببهاء ورونق؛ حانوت بيع الكتب، يكفيه لسد تكاليف الطعام والعلاج، كما يشبع رغبته في القراءة، كلما فتح كتاباً ذكره بحياته القديمة فى القرية؛ كانت حياة هادئة مليئة بروح الجد وما يرويه من حكايات، فما عاد يتذكر منها إلا حالته عند سماعها وسعادته بنشوه الأب وهو يحكي عن الجد العملاق، الذى كان يزرع الأرض وحده وهو فى السبعين من عمره، ويرى أن أولاده وأحفاده مازالوا طيوراً خضراء كما

كان يصفهم دوماً، يتذكر البيت الكبير، والحياة تدب داخله ورائحة الخبز المنبعثة من الفرن الطينى، وجده يجلس على دكة النورج القديمة، كان يفهم من حكاياته أن القرية والمدينة متناقضان؛ فى القرية حياة داخل الدور وجمود فى الطرقات، أما في المدينة فالموت داخل الشقق الضيقة، والصخب يملأ الشوارع والميادين. تمني أن لو عاد إلى أحضان قريته كي يبحث عن رائحة أبيه وجده، أعمام وأولاد عمومة لا يعرف منهم إلا الأسماء وبعضاً من ملامح قليلة يبدو أنها قد محيت تحت نقوش الزمان: آه يا أبى حنيني إليك يزداد كلما نظرت إلي دكة النورج والعباءة البنية، فمنذ انتقالنا إلى المدينة وأنا أتعجب كما كانت تتعجب أمي، لمَ تتمسك بهذه الأشياء وخصوصاً تلك الدكة العملاقة التى تملأ نصف البهو كمركب كبير فى حوض سمك –هكذا كانت تسميها– ؟

أفاق على صوت أول زبون يسأل عن رواية "بداية ونهاية" ، فقام مسرعاً أحضرها له دون أن ينبس بكلمة، يزيل عنها الغبار سراً يعدل إنثناء غلافها براحته، يلتفت إليه بها فيزم شفتيه لقلة كلامه، يدس النقود فى كفه ويغادر، فعاد إلى مقعده بين كومة الكتب، ولكن النقود فى كفه جعلت النشاط يسري في أوصاله، وكأنه اكتشف فجاءة أن

لما يفعله قيمة.. ترحم فى خاطره على العملاق نجيب محفوظ، ذلك الذى أطلق العنان لخياله يكتب؛ كي يقتات أمثاله، شعر أنه يريد أن يضحك فضحك، وقبل أن يقلب صفحات الكتاب الذى بين يديه، أخذ يقلب صفحات حياته؛ أطلق السؤال الذى ليس له إجابة: إلى متى؟ فقد تجاوز الأربعين بعامين والوحدة تأكل بنيانه وشريكة العمر لم تأت بعد؛ ولعل غيابها كان بسبب البحث عن بطلة من حواديت أبيه وجده، صبورة كأمه عظيمة كجدته.. يزيل الهواجس من خاطره بتغيير حركته في الجلوس، والمسح على وجهه براحته والقبض على عينيه بجفونه، يخلع النظارة ويمسح زجاجها ثم يرتديها ثانية وكأنه يلهو، تذكر حلم العودة إلى أحضان قريته فهدأت نفسه قليلاً، يرنو ببصره على الرصيف المقابل ليراها؛ فتاة فى العقد الثالث من عمرها، تحاول العبور بتؤدة وتواضع رغم جمالها، لوقع أقدامها على الأسفلت إيقاع موسيقي خافت يزداد كلما اقتربت؛ يسمعه برغم الصخب، تمني أن تكون وجهتها نحوه، يبدو أن أمنياته بدأت تتحقق، فها هى تتجاوز الباب برقه النسيم، تلقي التحية وتطلب " رسائل الأحزان " وتبتسم قائله: نصحني أصدقائي بهذا المكان وقالوا أن فيه كل قديم.. فقال مداعباً: نعم فيه الأحزان ورسائلها..

فأطلقت ضحكة كترنيمة لحن وقالت: هل تتركني أتفقد الأرفف وحدي.. فقال: بالطبع ولكنى أخشى على الأيدي الناعمة من الغبار فاحمرت وجنتاها.. وانطلقت تبحث فى الأرفف بأيد ترتعد من الخجل، فرغب في الاعتذار لكنه لم يفعل... تناولت كتابين ليس فيهما الرسائل، وضعت النقود أمامه على الطاولة وانصرفت.. تركته للندم وتأنيب الضمير، يبدو أنه لا يجيد التعامل مع الجنس الآخر، وهذا سبب وحدته الحقيقي، وليس ما دار فى عقله سابقاً، لابد أنها لن تأتي مرة أخرى، عاد يضع رأسه بين دفتي الكتاب الذى يأبى أن تقلب صفحته الأربعين، قبل أن تسبقها صفحات عديدة من الذكريات والشجون..

*****

بعدما أسدل ستار الليل عاد إلى البيت محملاً بيوم مشحون بواقع وذكريات، وما أن دفع المفتاح فى ثقب الباب حتى عادت الهمهمات القادمة من البهو، تحمل صوت الأب وحكايات جده: أما زلت جالساً يا أبي على دكة النورج القديمة تقص الحواديت؟ رحمك الله أيها المبتسم.. يتنصت إلى صوت الهمهمات، حتى فزع على إزعاج رنين الهاتف، تلقفه بيد مرتعشة؛ صوت أنثوى رخيم، تأكد أنه قد سمعه

من قبل، زاد يقينه أنها هى حين سمعها تعتذر عن انصرافها بسرعة فور التقاط الكتب، ارتاحت نفسه وهدأ صوت ضميره، الذي كان دائم الوخز لأنه أحرجها، هم أن يسألها عن مصدر حصولها على رقمه، ولكنه حين تذكر أنه مدون على لافتة الحانوت، ترك نفسه يسبح في جمال صوتها، دقيقة من الاعتذار المتبادل.. وأغلق الهاتف، ضاعت صور الذكريات، تبدد صوت الهمهمات تدريجياً حتى اختفى، تناول كتاباً في التاريخ، وظل يقرأ بنهم ومتعة شديدين، توقف عند بعض النقاط بالتدبر؛ كيف ألقت أم موسي ولدها فى اليم كى يعود إليها سالماً؟ كيف ألقى أخوة يوسف أخاهم في البئر كي يكون ذخيرتهم عند الجوع؟ عادت بسمته الغائبة، حين تنامى إلى سمعه صوت الهمهمات يعود، طوى الكتاب؛ ألقى سمعه نحوها، يتنعم بصوت الأب الحنون، ويده الأكثر حناناً تربت على كتفه الصغير، وهو يكرر خلفه كي لا ينسى..

(3)

تمددت في فراشها تعبث بخصلات شعرها، تقلب صفحات الكتاب على عجل ثم تعيد طيه، تتلقف هاتفها من جديد، تقلب ملفاته، وكلما يبدو أمامها اسمه تتوقف ثم تسير، تفيق على صوت صديقتها تأمرها بضجر أن تغلق النور، كي تستطيع أن تنام؛ فإن أمامها فى الغد عمل وشقاء، مدت يدها بآليه تنفذ الأمر وكأنها دمية، وتترك عيونها المفتوحه تبرق في الظلام، تفكر فى عقد العمر الذى تنفرط حباته بلا رفيق، نفس السؤال الأزلى يدور فى عقلها وكأنهما على اتفاق: إلى متى؟ قررت أن تنهي وحدتها برفقته فقد استشعرت بحاستها الأنثوية أنه المناسب، بينما تنطلق صديقتها فى نوم أشبه بالموت إرهاق وكد طوال اليوم كفيلان بأن يلقيا بها في بئر سحيق، ملقاة على ظهرها طارحة كفيها على الوسادة حول رأسها، تراها واضحة بعدما ألفت عيناها الظلام، يبدو إبهامها المبتور فى كفها الأيمن كنقطة سوداء في لوحة بيضاء، طالما سألتها عن السبب دون جدوى، تعمل موظفة استقبال في أحد المطاعم الفقيرة، وكلما حاولت أن تغير المكان إلى مكان أرقى وقف هذا الإبهام حائلاً دون ذلك برغم جمالها الأخاذ،

مسكينة مثلها، إلا أنها لا تفكر في الزواج، ترى أن الخلاص في المال وليس فيه وبالرغم من فشلها المتكرر فى الحصول على أيهما، إلا أنها تكابد..

****

صابر أبو الفتوح .. ذلك الرجل الذى عشق القراءة فجعل من الكتاب مصدراً لقوته، فماذا لو عشقها ؟ لربما جعل منها ملكة متوجة على عرش فقره، تبسمت حين لمعت تلك الجملة في عقلها.. ثم ضحكت حين أعجبتها.. قامت تسير على أطراف أصابعها، تفتح الشرفه بهدوء تلقي رأسها بالخارج تتأمل تلك الحارة الضيقة التى بدت وكأنها بلا حياة، تقف البيوت كشواهد قبور، بعدما اختفت أصوات البشر داخلها، إلا من صوت خافت لبكاء طفل مهمل، ينبعث من المنزل المقابل، آه لو كانت أمه، ما تركته يبكي حتى ولو ظلت تحمله بين ذراعيها أبد الدهر.. تحسست نهدها بحركة لا إرادية، ثم عادت تفكر فى ذلك الرجل، الذي لا تعرف عنه إلا الاسم المنقوش على لافتة حانوته، ولقاء واحد وحديث هاتف مقتضب، عادت مسرعة إلى فراشها وكأنها على موعد مع الأحلام.

(4)

قال: هذه الفتاة الجميلة، أحب أن أراها من بعيد، وما أن تقترب منى حتى أتأفف، إبهامها المبتور يثير إشمئزازي، الحمد لله أنها تعرض قائمه الطعام فقط وتحدد المطلوب، ولا تقوم بجلب الطعام لنا، يبدو أن صاحب المطعم يتمسك بها لأنه يعطيها أجراً زهيداً ..

قال: أو يتمسك بها لغرض آخر.. ثم أطلق ضحكة خبيثة ودس الملعقة في الحساء.. فعل صديقه فعلته وهو يطلق كلمته المستهلكه: ملناش دعوة..

تدور بين الموائد كفراشة، حتى سمعت صوتاً يناديها بإسمها: آنسه سحر. التفتت على الفور صوب الصوت وكأنها تعرفه: أهلاً أستاذ صابر، المطلوب تم، باقى تنفيذ وعدك.

ضحك ضحكة ساخرة قائلاً: هو فين اللى تم.

قالت: إنت طلبت منى أعرف من بعيد هى بتفكر فيك إزاى من غير ما أتدخل، وقلت لك إنها ليل نهار بتفكر فيك، حتى شغلها وصحتها أهملتهم، وكل ليلة ماسكة الكتب وسرحانة، تحب أتدخل..

فتبسم وكأنه وافق

فقالت: بس كدة حساب جديد.

فضحك وأعطاها لفافة من أوراق النقد

وقال لها: انت طماعة أوى أنا خايف صاحبتك تكون زيك.. ثم انصرف..

حاول أن يعود إلى المكتبة، ولكنه لم يستطع؛ يخاف أن ترفضه الكتب بعد هذا التآمر، وإن كان غرضه خيراً ولكنه جديد على طباعه، فقفل عائداً إلى منزله عله يجد في حكايات أبيه بوصلة ترشده إلى سواء السبيل، ولكنه وجد البيت يغرق في صمت ووحشة، الهمهمات تختفى، والابتسامات خلف الزجاج صارت باردة يعلوها الغبار والتشويه، فهاهو ذا ينسلخ من عباءة الجد متآمراً مع صديقتها الوحيدة، كي تقنعها بأن خلاصها الوحيد معه مقابل إعطائها المال، مسكينة آمال، صاحبة أول غزو بلا هجوم، لا يدري حقاً هل يستحق كل منهما الآخر أم لا، ولكن الوقت ليس فى صالحه كى يتدبر فقد قرر أن يخوض تلك التجربة بكل ما فيها من تحديات، حتى وإن رفضت كل الكتب وسيلته فى الوصول، حتى إن رفضها أبوه من خلف

زجاجه الشفاف.. قضي ما مضي من العمر فى صالات الانتظار، وقد آن الأوان أن يكون له فيها دور حقيقي، يكون له فيها ولد وزوجة: أقل حقوقي يا أبي.

كلما عاتبه زالت ابتسامته، ولكن لابد له أن يفهم أن أيامه قد صارت تراثاً ولكل عصر رجال، عاداته وتقاليده أمست بالية كقدم تلك الأشياء التى تركها له، دكة تملأ البهو دون نفع، عباءة مهترئة ضاع لونها، بعضاً من حكايات قديمة أكلتها لغة الآله، حتى أنفاسه وترانيمه بدأت تختفي، وحنينه فى العودة إلى القرية بدأ يقل، كيف يفرض نفسه ضيفاً على من لا يعرفونه؟ التقط علبة التبغ من فوق الخوان استل سيجارة وامتصها، ينفث دخانها بقسوة، فهذه أول مره يدخن فيها أمامه، تصنع حلقات الدخان حائلاً بينهما فلم يعد يراه؛ قد تكون الدموع تنهمر من عينيه الآن ولكن لا شئ يهم، يقتل طاقته بالتبغ بقوة، كي يرتمي فى أحضان نوم بلا هواجس ولا حراك؛ ميت كامل، بنصف روح قديمة منهكة، تصارع نصفها الآخر الذي يريد التحرر والخلاص..

(5)

مرت الأيام وما عاد فى جعبته من الصبر سهم واحد، أهمل عمله وأوراقه، والرغبة تملأ الجسد، وتتسرب صوب الروح سأم من الوحدة التى كانت تقاسمه الحياة، سأم همهمات الأب المنبعثة من البهو حتى كادت أن تنقطع، لم يعد له حاجة فى قراءة التاريخ، بعدما ألقى المستقبل على الحاضر غموضاً وريبة، فها هى المفاصل تيبست بعوامل الزمن، وهاهو الجسد قد ترهل حتى صار كالبالون، حتى أن الشقوق فى دكة النورج القديمة تزداد يوماً بعد يوم، وكلما أحضر النجار العجوز لإصلاحها يدق فيها مسمارين كبيرين، ويقول مطمئناً أنها أقوى من الزمن وينصحه بالاعتناء بها، ثم يرفض تحصيل أجره كل مرة، تناول هاتفه بعدما قرر.. تتسابق دقات قلبه مع دقات الجرس.. ردت ببرود على الطرف الآخر قائلة: إزيك أستاذ صابر.. فقال: آنسه سحر أنا محتاج أكون معاها على إنفراد.. واللي تطلبيه من عيوني.. فضحكت ضحكه مائعة وقالت: هو دا الكلام..

*****

جلس ينتظر رد تلك الطامعة صاحبة الإبهام المبتور، حتى رن الهاتف تلقفه مسرعاً، أعطته العنوان وناشدته الإسراع حتى تتركهم وتنزل إلى دوامها، يشعر أن جسده قد صار بخفة النسيم، وفي وقت قياسي كان عندها، فتحت له الباب وهي بملابس العمل، استقبلته في بهو صغير ولكنه منمق بذوق أنثوى رائق، جلس في أقرب أريكة، مدت يدها تناولت المعلوم ودسته في جيب سترتها ثم نادت: آمال صابر وصل.. جاءت تتعثر في حيائها.. سلمت عليه وجلست على أريكة مقابلة، ساد الصمت طويلاً حتى قطعته سحر قائلة: أنا هتأخر على شغلي سلام.. ناشدتها آمال بلغة العيون أن تنتظر دون جدوى، بادرها دون ارتباك: أحبك وأريدك زوجة.. قالت بتلعثم: هكذا دون أن تعلم عني شيئاً.. فقال: العمر يمضى وليس أمامنا متسع للتفكير، وها قد جئت اليوم لأعرف.. ألقي سمعه وبصره بين يديها وتركها تتكلم.. فقالت: ليس لى أهل إلا صديقتى الوفية سحر، مات أبى وتبعته أمى عملت فى محلات الملابس وتعلمت القراءة والكتابة بنفسي أفضال الناس محدودة عليّ، صارعت الزمن بكفي، كثيراً ما طمع فى الطامعون، ولكننى قاومت، حتى سقطت في حبك، حاولت صديقتي كثيراً إقناعي بأنك المخلص، يبدو أنها نجحت، عرفتها منذ أعوام، كل ما أعرفه عنها أنها فرت من الفقر، تبحث عن المال بكل

قوة ولكنها لم تدركه بعد، ولكنها تحبنى وتخاف عليّ، كنت أؤمن بذلك حتى تركتني الآن وفرت؛ بدأت الريبة تأكل هذا الإيمان..

قام على الفور قبل أن تسقط دمعتها تلقفها بين أصابعه، ضمها إلى صدره كما لم يضم أنثى من قبل، ذابت بين أصابعه وتلاشت قبل أن تذوب دمعتها المعلقة على طرف إبهامه، تلاشى كل شئ من حولهما، يسبحان في سماء الرغبة على أجنحة طائر الحب الطامح الطامع في المزيد.. غابت عنه حكايات الأب ونصائح الكتاب كما غاب معها العقل.. تفتحت مسام جلدها وكأنها الأرض البور حين تبتلع المياة..

*****

خرج من عندها خائفاً يترقب، لم يلتفت إلا والمنزل عار تماماً وكأنه بلا سقف، البرودة تتخلله من كل جانب برغم إغلاق النوافذ وإسدال الستائر، برد قارس يلعق وجهه، جثا على ركبتيه أمام دكة النورج القديمة وكأنه درويش على باب ولي، وجد التشققات فيها تزداد اتساعاً، يبدو أن مسامير النجار العجوز ما عادت تجدي، انقبضت نفسه، بكى كما لم يبك من قبل، بات ليلته بملابسه منكفئاً على القائم المكسور، جماد شاخت روحه، إنسان سقط بعد طول قيام..

أفاق على يد حانية يعرفها تربت على ظهره، إلتفت على الفور، دفع جسده كاملاً إلى نهاية الحصير، أفسح له الطريق كي يعتلي الدكة، يصعد بتثاقل مرضي، يلف بدنه بالعباءة ويطرح ساقه المعروقة الزرقاء من أثر الدوالي، كما يبدو الاحمرار في كعبها من أثر النقرس، يعود بسرعة ليكون فى ظل ساقه، يمد يده يدلكها قائلاً: ألف سلامة عليك يا آبا.. يجذب قدمه من بين أصابعه بقسوة قائلاً: ابعد إيدك النجسة عني...

يرفع يده قرب بصره يجدها تشخب دماً، يصرخ صرخة قوية تسقط على إثرها العباءة فارغة، ينتصب قائماً، يترنح ثم يسقط، يفيق إثر طرقات متكررة على الباب، يقوم برأس مثقلة وبدن منهك، وما أن فتح الباب حتى دفعته بقسوه نحو الداخل؛ تصرخ فيه: إيه اللي انت هببته ده وأنا كنت فاكراك محترم.. فيرد بصوت متهدج: في إيه يا آنسه سحر؟ وطى صوتك لو سمحتي.. فتواصل بجرائه: اخلع قناع الأدب والمروءة وكلمنى زى ما بكلمك بلا آنسة بلا زفت..

ظلت طويلاً تصك أذنيه بألفاظ نابية وهو ينظر إليها بلا إكتراث، وكأنما يركب أرجوحة، تعلو وتهبط، فيراها تارة قبيحة ضخمة، ويراها تارة قطة تموء، ثم قال بغضب بارد: والخلاصة عايزه كام.. فقالت

على الفور وكأنها كانت تنتظر تلك الجملة: ألف جنية.. دلف إلى حجرته يفتح حافظة ثيابه، يخرج من مدخراته المبلغ المطلوب، يلتفت فيجدها وقد ولجت خلفه، صامتة بوجه مختلف، تناولت المال وعيونها معلقة على الباقي، تزدرد ريقها بشغف تقول: والبنت الغلبانة دي هتسيبها كدة؟ فقال: مالكيش دعوة بيها.. وأمرها بالانصراف فانصرفت..

أغلق خلفها الباب جيداً، دفع بنفسه تحت الماء البارد عله يفيق، لا يسيطر على تفكيره الآن إلا تلك الطامعة، ثم ضغط على رأسه براحتيه وكأنما يذكرها بذلك الملاك المجروح، خرج شبه عار برغم برودة الجو، تناول هاتفه وقطرات الماء تتساقط من كفيه، قائلاً فيه: آمال متخافيش أنا هتجورك وبسرعة.. ثم أغلق الهاتف دون أن يسمع منها حرفاً، بدل ملابسه، إتجه إلى حانوت الكتب بعقل شارد، لا يلتفت إلى أحد،لا يرد السلام ولا يبدأه، لا يأبه للناس التى تضرب كفاً بكف تعجباً لما آل إليه حاله، يفتح الباب فلا يسمع له صريراً كما كان، فقد إكتفت أذناه بصرير أكثر إزعاجاً كان يندفع كطلقات مدفع من فم تلك المرأه الممسوخه صاحبة الإبهام المبتور، ألقى بجسده على مقعده دون أن يهتم بتنظيف الغبار، أغلق الكتاب المفتوح على صفحته

الأربعين منذ أن عرفها، ينفث دخان سجائره فى الهواء ويسحق أعقابها في الأرض بهمجية، حقق مبيعات عالية وأعطى وعوداً لكل الزبائن بأن يوفر لهم كل ما يريدون من مجلات وكتب، ترك نفسه للوقت كريشة يحركها الهواء، رن هاتفه مرات ولم يرد..

*****

ولما جن الليل، وهدأت حركة البيع والشراء، دفع بنفسه في الكرسى وأخذته سنة من النوم؛ خوفه من العودة يغلب خوفه من لصوص الليل؛ فلم تعد تحتمل نفسه مواجهات جديدة، أفاق فزعاً على يد تدفعه، رفع رأسه فوجده أمامه بهيئته، يرتدي العباءة البنيه الممزقة، والجلباب الأبيض، يحرك بين أنامله المسبحة كعادته، يقول له: إنت بتهرب منى يا صابر.. يطأطئ رأسه في الأرض ولا يجيب، فيخرج قائلاً: تعالى ورايا..

يخرج خلفه منكس الرأس كما كان، لا يتذكر هل أغلق الحانوت أم لا، يسير طويلاً حتى أنه صار غير قادر على حساب الزمن أو إحصاء المسافات، تارة يشعر أنه يطير، وتارة يشعر أنه يتباطئ، يخرج من الحاجز الأسمنتي الضيق إلى رحابة الحقول، حتى انتهى به المطاف

على باب قبره، صرخ بصوت يقطعه البكاء: سامحنى يابا.. فقال له: أنا مسامحك المهم هو.. وأشار نحو السماء، ثم استطرد: اتجوز آمال يا صابر، وروح لعمك قول له إدينى حقى اللي في الكتاب، وإبقى خلى ولادك يجوا يزوروني.. ثم مد قدمه يخترق الباب، ألقى بصره كاملاً عليه وهو ينام في أحضان جده العملاق، الذى يرقد بكامل هيئتة، جلس عند الباب وحرارة عروقه تكاد أن تذيب برودة الجو وتحيله إلى قدر يفور، هم يناشدهم أن يفسحوا له مكاناً بينهما، ولكن برودة الجو غلبته فجأه فخاف، تذكر الحانوت، ورزقه المعرض للنهب قفل عائداً بسرعة البرق الخاطف، رفع رأسه على صوت آذان الفجر، لملم أعقاب السجائر المتناثرة، أحكم إغلاق الباب، دلف إلى المسجد يصلي، يلقي بصره على الضريح بنوره الأخضر، تسري القشعريرة في بدنه من جلال المكان، يخرج مسرعاً وكأنما يفر من بقايا خطاياه التى يخشى أن تلاحقه بعدما ظن أنه تركها على العتبات، تصيح نفسه: سأتزوجها وأبرئ نفسي، عاد إلى بيته الغارق في السكون، ابتسم بتهكم من حالته مقارنة بالحياة التى رآها تدب فى القبور، تعجب ممن يطلقون عليهم أموات؛ وما رآه في القبر والضريح ينفى ذلك الزعم كله، انثنى في فراشه كطفل مذعور حتى أتاه النوم، فلم تعد الهمهمات تؤنس وحشته بعدما انقطع خيطها، ولم تعد

الصور تجالسه بعدما غضبت عليه، وما أن ألقت الشمس خيوطها حتى أيقظته، فبدل ثيابه، وأخذ ما فى حافظته من أموال، ثم اندفع خارجاً من الباب يغلقه وهو يهاتفها، يطلب منها أن تستعد كي يذهب بها إلى المأذون، سمع أصوات الفرحة فى نبرات صوتها وهى تقول له: حاضر.. فقال: هعملك فرح محصلش..

فضحكت بشراهة وكأنما قد استعادت عزاً مفقوداً

(6)

(طالما أنك تقرأ في هذا الكتاب؛ فأنت بالطبع من نسل فتح الله، من أي ظهر أو بطن تكون ، لا يهم، قد تكون من طرح أبو الفتوح أقرب أولادي منى مجلساً، أو من طرح صالح، هذا الذكي المكافح، أو من بطن ثريا، محبوبتي الصغيرة الكبيرة، أو من طرح سليم ذلك الفتى الأخضر، الذى ما أظن أنى سأدرك طرحه، فقد تركته يلعب مع أولاد اخوته ودخلت أكتب هذه الكلمات، تمكن المرض مني يا ولدي، وما عاد عندي لحربه طاقة، سألقى بكل أسلحتي على هذه الأوراق، علها تكون ذخيرة لكم، اتحادكم عندى هو الأهم، وله ضوابط وشروط، فلا يعنيني أن يجوب الفرد منكم الأرض كلها، فليس معنى الاتحاد أن يحويكم بيت واحد، وإنما معناه، أن تستجيب لنداء أخيك ولو فى بطن الحوت، تدفع عنه بنفسك ومالك طالما الحق معه، تأخذ على يديه طالما جافاه الصواب، لا يسرق أحد منكم متاع الأخر، حتى وإن كانت إبرة، ولا يستعمله حتى لو أذن له لأن الإذن يكون بسيف الحياء، له فقط أن يشتريه ويضمه إلى نصيبه بعد إلحاح صاحبه في الطلب، ولا يعرض أحد الشراء مطلقاً..

لا تسقط أحقية صاحب الحق فى قطعته حتى لو خالف تقاليد العائلة، ربما يخرج من ظهره من يتمسك.. عندكم ما يحميكم؛ أحاديث اللمة التى كنت ألقيها على مسامعكم، فهي خلاصة تجاربي وحياتي، قريب مني، ما دمت تذكر منها شيئاً، بعيد عني طالما أنساك الشيطان)

ظل يقرأ حتى أوشكت الشمس على المغيب، فاستجمعت خيوط شجاعتها ودخلت عليه دون أن تطرق الباب، ترتدي أبهى الثياب، وتبدو بنضارة وجه صبوح، تغلق الكتاب بدلال أنثى عاشقة..

– حد يقعد يقرأ كدة ويسيب مراته حبيبته.. تعالى نتغدى سوا، عمك صالح بعت الغدا من بدرى..

فما تنبه لوجودها إلا حينما اشتم رائحتها الذكية، فأنعشت روحه، تشبثت بأطراف أصابعه وكأنها ترفعه، حتى وصلت به إلى مائدة الطعام، ظلت تسامره طويلًا، وهو مستمتع بحديثها، عن كرم عمه صالح، برغم أنها هابته، منذ أن رأته أول مرة وهو يرقص بالعصا بعصبية يوم الزفاف، وعن طيبة عمته ثريا، التى تعاملها كأنها ابنتها، وأولاد عمه، حسن وحسين، وعمه سليم الذى يرفض أن ينادى

إلا باسمه مجرداً؛ فهو أصغر منه سناً، وتعجبها من أنهم يتركون نصيب صابر من البيت الكبير كما هو، دون أن يستخدمه أحد، وفرحتها وهى ترى نساء العائلة جميعاً ينظفن لها البيت، دون أن تساعدهم لأنها عروس، كل منهم بنى لنفسه قطعة من البيت الكبير، ومكان أبو الفتوح محفوظ ، برغم بنيانه الطيني إلا أنه بالنسبة لها قصر منيف، سمعها دون أن ينبس برغم سعادته بكلامها ولكنه الآن يسبح فى ذكريات طفولته وهو يجلس أمام الجد، يستمع إلى أحاديث اللمة، يتذكر يوم أن تخطاه سليم برغم صغر سنه وبنيانه، ليقترب من الجد ضارباً بتقاليد اللمة عرض الحائط؛ بأن الاقتراب من الجد بأقدمية السن، فرح لفرح سليم بأن فاز بتمرده، بالرغم من أنها كانت خسارة له، تذكر حين رفعه الجد مداعباً وهو يقول: آخر العنقود سكر معقود.. يراجع تلك الأيام بسرعة وكأنما يقلب صفحات الزمن، ذاكرته مشحونة بالأحداث، حصير اللمة؛ حين داسته أقدام المشيعين يوم وفاة الجد، عمه سليم وهو يقف مطأطئ الرأس لايعي أنه صار يتيماً أكثر من مرة، عمته ثريا؛ وهى تطلق العديد خلف نعش فتح الله العملاق، أبوه وهو يرفض الحياة هنا بدونه، فيقرر بعد وقت قصير أن يغادر، عمه صالح الذى لم يضحك من قلبه منذ ذلك اليوم..

ظل يسبح في حديثها تارة وفى ذكريات طفولته تارة أخرى، حتى تنبهت إلى أن الطبق أمامه مازال على حاله لم يقل، نبهته مراراً حتى رد عليها بحديث مقتضب، ثم أكل وشرب قدراً يسيراً، وقام متجهاً صوب المكتب وكأنه تحت تأثير مخدر، انفجرت بالبكاء، فلم يكترث، تحركت فى بطء حزين ترفع الطعام، ثم دلفت غرفتها وحيدة كعادتها، تسامر أطياف الضوء حتى نامت..

******

(ولدي الحبيب، لم أدّع يوماً أننى قد أسست مملكة معصومة، ولكنني اجتهدت قدر طاقتي وعلمي، أن أحافظ عليكم كما يحافظ النسر على فراخه، جمعتكم حول دكة النورج فى لمة واحدة؛ ألقى عليكم عصير تجاربي، كما تمنيت أن تكتسبوا من سيقانها القوة، ومن قدمها الأصالة، ومن تجمعكم الرحمة والمحبة، لا أنكر أننى أخطأت في بعض المواقف؛ وهذا مرجعه أنني لست معصوماً، فكان خوفى عليكم هو المحرك الأساسي لهذه الأخطاء، أبعدتكم عن أعمال الحقل الشاقة ظناً مني أنكم مازلتم صغاراً، ولكن ها أنا أتأهب لمغادرة البيت الكبير؛ والأمل يملؤني أن ما غرسته فيكم سيكون مثمراً، كما أعلم أن البيت الهادئ ليس بالقطع سعيداً؛ وإنما قد يكون فى مرحلة التمحيص

والإعداد لملحمة كبري، أخبرني أبى: أن الهدم الحقيقى لا يكون إلا بمعول من الداخل، والخلاف قائم ومقبول، طالما ظل بعيداً عن الشقاق؛ ولا شقاق إلا بالحرام، ساعتها سألته وكنت أكبر أولاده سناً: من تتوقع يا أبى أن يقطع هذه الشجرة بمعوله؟ فقال بلا تردد أو تفكير: أول ولد من حرام...

لم يعد يحتمل المزيد من القراءة، فاضت عيناه بالبكاء، إضطربت أحشاؤه بالخوف، يرفع رأسه طمعاً فى أن ينسي ما قرأه لتوه، فوجدها شاخصة أمامه مبعثرة الرأس كأنها شيطان، كثرة البكاء أكل عينيها فلم تحتمل المزيد، نيران هجره أتت على نضارتها فأمست زهرة ذابلة تحت أقدام ثور لا يكترث لأناتها، بادرته بصوت عصبى متهدج: انت إتجوزتنى ليه؟ طالما مش عايزني.. فرد عليها بقسوة وبلا تفكير: علشان أستر عليكي..

فأجهشت ببكاء أشبه بالنحيب؛ فلم يعد فى مآقيها ما تجود به، فقد تعطلت رغباتها حينما صفع كرامتها، فقالت وهى تتأهب للانصراف: أنا حامل..

تلقي الكلمة كما يتلقى المقتول طعنة السكين، يغشى عليه ويفيق مرات عديدة، هم أن يمزق كتاب الجد الخرف، ولكنه خاف من رد فعل أعمامه، فهم مازالوا غارقين فى ضلالهم القديم، تحولت كلمات الكتاب وكأنها نقوش سريالية، ليست قادرة علي تغيير أمر، تحول بكاؤه إلى ضحكات هستيرية بلا معنى، يصرخ بصوت عال يكاد يوقظ القرية الميتة: كيف للأمس أن يصلح اليوم يا آل فتح الله المجانين؟ يكررها مرات حتى عادت إليه مسرعة تكابد فى إغلاق فمه براحتها، وكأنها تصارعه وما تركته إلا وقد سقط من على كرسيه، همت أن تقرأ الكتاب ولكن القشعريرة قد سرت في بدنها، وكأنها تقترب من كتاب مرصود، تناولت هاتفها كى تبث همومها لصديقة عمرها، فلم ترد عليها مرات عديدة، تذكرت خلالها طلبه منها أن تبتعد عنها، لكنها لم تكترث وأعادت المحاولة، حتى رد عليها رجل قبيح الصوت؛ وما أن سألته عنها حتى أغلق الخط بهمجية، عادت تنثر رذاذ الماء على وجهه حتى أفاق من سكونه، فتركته وعادت إلى حجرتها تحكم إغلاق الباب علي نفسها؛ وكأنها خائفة من مجهول لا تدركه حواسها..

******

بالرغم من أنه أفاق إلا أن جسده مازال يلتصق بالأرض وكأنه ألف برودتها، ولم لا وهى التى تتلقفه دوماً بعد كل صدمة بحنان أم رؤوم، يقبله سطحها، كما يقبل باطنها كل مغامر وجبان؛ لا يفرق التراب بينهما، كم تمنى أن لو سأل ديدان الأرض أى المذاقين أفضل؟ قام واقفاً يزيل آثار الغبار عن ثيابه، ثم ندم ندماً شديداً أنه قد ترك شقته النظيفة، ليأتي هنا فى حياة فقيرة قوامها التراب والبق، أرضية غير ممهدة ، ينام على ما فسد من أسرة أعمامه، بعدما طالت بيوتهم وتزينت بأرقى الفرش والوسائد، خرج من حجرته ليلج الحمام المقام أسفل السلم الطينى بعدما يحني رأسه لقصر بابه، اغتسل وخرج على عجل، فلا يمكن أن يطيب له المقام فيه لضيقه وظلمته وكأنه قبر، لمعت فكرة أمام عينيه وكأنها الحقيقة؛ أنه ما عاد إلا هروبا للداخل من مطاردات الأب العديدة، فإختار مكاناً لا يمكن أن يلقاه فيه؛ فقد قالها يوم خروجه الأول، أنه لن يعود إلى الترسانية وليس فيها فتح الله، قام يطرق بابها يناشدها أن يحتمي بين ذراعيها من هواجسه وآلامه، تفتح الباب بخوف وترقب؛ فما شاهدته لتوها من أفعاله هو أقرب للجنون، دخل على الفور يختبئ بين ذراعيها كطفل يخشى العقاب، مسحت على رأسه بحنان أم، قال: سنسافر في الغد.. فرفضت قائلة: لابد لولدي أن يولد في البيت الحقيقى لجده وليس

المستأجر، فضحك ببلاهة مصطنعة وقال: حيث الفئران والبق، وعلى سرير قديم مستهلك أنعم عليه به جده صالح، و حوله أنغام من نقيق الضفادع وحفيف الأشجار ونعيق البوم، فقالت: دوماً تسخر من عقلي، ولكني قد حزمت أمرى، وسأعيد إعمار أبراج الحمام المقامة على السطح زادت ضحكاته حد السعال، وهو يقول: أيسر من ذلك أعيدي إعمار العراق، هل نسيتى رزقنا في حانوت بيع الكتب؟ فقالت: إذن سافر وحدك وعد لنا كلما سمحت الظروف فقال: وحدي .. وحدي

أعود للوحدة الملعونة، وأتركك للخوف الساكن فى لبنات هذي الدار، قالت: لما تقول هذا؟ ما خفت هنا إلا منك حين تهذي، أخشى أن يحيلك هذا الكتاب إلى مجنون كامل، وماعدا ذلك فإن الأمان يحيطنا من كل جانب، تحت رعاية الأعمام وأولادهم، فضحك ضحكته المخيفة وقال: مجنون حقاً منذ أن أعطيتك جسدي وروحي، وأعطيت صديقتك الطامعة إرادتي وعقلي، هل تعلمي أنها أخذت مني ثمنك مرتين، مرة للقرب ومرة للوصال، هيا افقدي ثقتك بكل العالم بعدما علمت تلك الحقيقة..

ألقى صخور كلماته على صدرها، وأدار لها ظهره وانصرف غير عابئ بنزيف قلبها؛ وكأنه قاتل محترف، تحرك كفها على بطنها، وكأنها

تناشد طفلها الإسراع بالقدوم، كي يكون مخلصها الحقيقي، فلا يعقل أن يخونها هو الآخر وهو نتاج بطنها؛ الإبن الشرعي للحظة حب واستسلام، ستظل تدفع ثمنها من كرامتها ودموعها، حتى يأتي هذا الغائب في ظلمة رحمها يقطع كل لسان لا يعجبها قوله؛ تتوعد به كل الطامعين فيها، تلك الصديقة القوادة الخائنة، وهذا المجنون الذي يغفو ويفيق، تسمع طرقات الباب الخارجي فلا تجيب، فقد اعتادت أن يلبي هو نداء القادمين، قام من جلسته أمام الكتاب، وفتح الباب علي وجه عمه صالح فرحب به وأدخله، فسعل بصوت عال كتنبيه لحرمة البيت، فقال له: تفضل يا عمي، فدخل وجلس على أقرب أريكة وقال: حق ضيافتكم كان ثلاثة أشهر كاملة وقد انتهى اليوم، عليك تدبير أمرك تتسلم أرضك التى هجرها أبوك، وتأخذ إيراداتها السابقة، تزرعها إن أردت، أظن أنك قد قرأت الكتاب، وعلمت حقوقك وواجباتك تجاه العائلة، عليك أن تجلس إلى عمك الصغير سليم، لتقنعه أن يرجع من طريق أفكاره الغريبة التي تجعله يرفض الزواج؛ ستكون أقرب الناس منه؛ لعلمك وفهمك وتقارب العمر بينكما، آن الأوان ليكون لك دور حقيقى فى إعادة ترتيب هيكل العائلة كما قال الجد في كتابه، ظل يتكلم طويلاً وهو يستمع إليه بمهابة شديدة، وكأنما يعيد إليه حديث الأب والجد –حديث اللمة– ولكن بشئ من الغلظة أحياناً حين يتكلم

عن حقوق الضيافة التى انتهت؛ وكأنما قد تعلم من أخطاء فتح الله التى ذكرها في كتابه، عجباً لهذا الرجل العملاق الذي يحرك الأحداث حتى بعد موته، تركه حتى إنتهي من حديثه ثم قال: ليس لى فى زراعة الأرض حاجة، ستظل تحت يديك كما هي، وسأظل أعمل فيما أحب وأفهم.. فقال: كما تريد ياولدي وسأرسل لك دفاتر حساباتك تراجعها.. ثم هم بالإنصراف؛ ولكنها خرجت مهرولة تناشده الانتظار حتى يتناول الشاي معهما ففرح بكرمها وقال: ربنا يسعدك يا عروسة إبني.. وألقي عليه نظره ذات معنى؛ ففهمها وأهملها، وظل ينظر إليه وهو يحرك العصا ويعبث بالمسبحة...

(7)

<u>ثريا فتح الله</u>

تجلس بعد ورد العشاء فى جلسة تسبيح، يتخللها دعاء يشمل الجميع، هجرها الزوج بالوفاة وهجرها الإبن بالسفر وعادت إلى نصيبها من المنزل الكبير كى تأنس ببقايا ذكريات الراحلين وأنفاس الحاضرين، دعت له طويلاً حين أتى دوره، وكذلك دعت لأبيه بالرحمة، فقد كان الحبيب الرقيق: رحمك الله يا أبا الفتوح، ثم بكت كعادتها كل ليلة وهى تتذكر كلماته لها وهو يقول: ثريا أم قلب إزاز الوحيدة اللى هشيل همها في الغربة.. كم يواري هذا التراب من أجساد عظيمة وقلوب رقيقة، ثم أفاقت على لسانها يقول: اللى خلف مامتش؛ ربنا يبارك لى فيك يا صابر.. هذا الولد الغائب الحاضر، لا يفصله عنها إلا جدار واحد ولكنه ما زارها منذ أن أتى بعروسه الجميلة، فقد زارتها أكثر منه، وكلما سألتها عنه قالت: مشغول في قراءة كتاب الجد..

فتمتمت: مشغولون بك حياً وميتاً يا فتح الله الحبيب..

ألقت رأسها على الوسادة وساعديها مضمومان إلى حضنها وتركت نفسها تعود إلى الوراء حيث لمة العيال، وفتح الله يملأ دكة النورج القديمة، كما يملأ أجواء المنزل بحكايات السابقين، حاول أبو الفتوح عدة مرات أن يجلس مكانه ويقص حكاياته، ولكنه ما استطاع ولا أحب، فأخذ الدكة والعصا والعباءة وهجر الدنيا كلها إلى المدينة، تتذكر جيداً ما دار بينه وبين صالح فى عدم أحقيته في نقل هذه الأشياء معه، كما تتذكر قصة استخراجه للكتاب أول مره، حين فتح حافظة ثيابه، وقال: هذا الكتاب كتبه أبوك يا صالح، وتركه أمانة عندي.. وكيف أخرج له من الكتاب أن الدكة والعصا والعباءة له يذهب بهم حيثما شاء، وإدارة الأرض والبيت لصالح، وليس له حق الخروج منهما حتي يموت، وعليه أن يتسلم الكتاب ويحفظه، ويحدد الحقوق ويحفظها، دون مكاسب من ورائها، تذكرت وجه صالح والريبة تكسوه، من أن أبو الفتوح هو من زيف الكتاب؛ ولكن حاجز المهابة والسن حال دون التصريح بما فى قلبه، وإن بدا جلياً على وجهه، تذكرت يوم أن إنفرد بها يبث إليها وساوسه كلها؛ فقد كانت بئر الأسرار لكليهما..

وما إطمئن إلا حينما أكدت له أن هذا هو كلام فتح الله، ولا يستطيع أن يكتبه أبو الفتوح؛ الخط والأسلوب، ثم أزالت كل وساوسه بكلمة واحدة، لو كان هو من زيف الكتاب لجعل لنفسه فيه نصيباً أكثر من حقه، فارتاحت نفسه واطمئنت، وظل يرعى الأرض والبيت دون مكاسب إلا ما خصه به الكتاب من نصيب مفروض، وضع الكتاب نصب عينيه وجعله منهجاً وقانوناً، رضيت به نفسه، ورضي به الجميع، وقد كان سليم وقتها مازال طفلاً بلا رأى؛ عادت من شرودها فى سراديب الماضى إلى الحاضر المخيف حينما تردد ذكر سليم فى جنبات عقلها، فلطالما سمعته يتمرد على وصايا الكتاب، بل ويسخر من الجميع بأن سلموا مصائرهم لرجل راحل مهما كان يخططها لهم من عالم ما تحت الأرض، وكلما وجد الهجوم عليه ضاريا سكت؛ وقال: لن يفهمني سوى صابر.. آه منك يا سليم.. أيها الشاب المتمرد دوماً، مجهول ما تريد، ترفض الزواج، تحب النوم، تبغض العمل والكد، تميل إلى العزلة... حتى أن الناس أحاطته بدائرة من الظنون؛ فمنهم من قال: أن به مس أرضي، ومنهم من قال: أن إبن الكبر دوما غير صحيح العقل؛ فقد أنجبه أبوه وهو على مشارف الستين من عمره، ولولا خوف الجميع من بطش صالح، لأخرجت

الألسنة ما هو أكثر وأكثر؛ ظلت تدعو له بالهداية والصلاح حتى أسكنها النوم فى جوف بئره..

******

يدخل عليها في حركة نشيطة، يرتدي زيه الصيفي المعتاد ويضع الجلباب علي كتفه، يجلس على حافة الفراش بجوار رأسها، يربت على شعرها في حنان، تفتح عيونها ثم تقول بحب بالغ: حمدا لله على السلامة يا أبا بقالك كتير مزرتنيش..

فقبل جبهتها؛ فرفعت رأسها تضعها على فخذه وهو مازال يعبث بأنامله في شعرها، ثم قال: وضعت الحمل على الناقة وعقدت عقدة، وعقد صالح عقدة وعقدت أنتِ يا ثريا العقدة الثالثة؛ فإستقام الحمل وإستوي حتي فكت عقدتى فمال بعض الشئ، ولكنه محفوظاً طالما أنتِ هنا؛ فأنتِ آخر عقدة لى فإن نقضت سقط الحمل وعقرت الناقة هذه أقدار يا إبنتى فبكت بكاءاً مريراً وقالت: طيب وسليم وصابر؟ فقال: هم الحمل نفسه، أما أبو الفتوح فحاله يسر الحبيب فها هى خطاه تسبق خطاى، أحاول جاهداً اللحاق به فلا أستطيع؛ فقالت: إزاي وهو اللي زيف الكتاب؟! فقال بدهشة: كتاب! أى كتاب؟ ثم لوى

شفتيه متعجباً وانطلق يسبح فى سماء الغرفة، استيقظت على أذان الفجر؛ تبحث عنه بلا جدوى، فاستعاذت، وحسبلت، وحوقلت، وقامت تزيل خمول الجسد بالوضوء، وتزيل خمول الروح بالصلاة..

(8)

<u>سليم فتح الله</u>

يخطو داخل البيت بحذر شديد كي لا يوقظ أحداً فقد اعتاد السهر على قهوة هدهد، كما اعتاد النوم طول النهار، كل ما يشغل عقله الآن؛ ماذا لو استيقظ صالح واكتشف عودته متأخراً؟ فسوف يلقي على أذنيه بعضاً من كلماته الحادة، بالرغم من أنه قد اعتاد على تلك الكلمات (مستهتر أرعن) وبالرغم من أن صالح لا يمل من إطلاقها عليه منذ أن شب عن الطوق، إلا أنه يتحاشي المواجهة قدر المستطاع، فلم يرد صالح أن يعترف بأن سليم قد كبر وأصبح شاباً له إرادة، متعلم له عقل ووعي، فما زال يراه ذلك الطفل المدلل –السكر المعقود– كما كان يسميه أبوه، دخل حجرته على أطراف أصابعه، تمني أن لو يسمح له بالإنتقال للعيش فى بيته المقام على نصيبه وحيداً؛ ولكن صالح يرفض أن يتركه إلا بعد الزواج، حياة بغيضة تلك؛ أن يحيا كل العمر تحت إدارة الآخرين، وكأنه سجين؛ وبالفعل فها هو يتعامل بروح السجين الذى كلما سمح له بالفرار فر، وكلما أجبر على الإقامة أقام، ولكن إلي متى سيتحمل كل هذا العناء؟ فالكل

ينظر إليه بكونه طفلاً بلا رأى، عاطل بلا عمل، نظرات الشفقة التى تنهال عليه كلما جاء ذكر قلبه المريض تقطع ما تبقي من نياط سليمة في هذا القلب السقيم، نظر في المرآه يتحسس نضارة وجهه التى ذبلت بفعل السهر والشراب، مات أبوه قبل أن يرويه بما يكفيه من الحنان والحواديت، وتبعته أمه سريعاً؛ جاعت نفسه لولا روحية زوجة أخيه صالح لمات على إثر هذا الجوع النفسي الرهيب؛ فهو أشد ضراوة من نقص الطعام، حتي ثريا لم تشعر به كما شعرت روحية؛ ثريا دائمة التبتل والعبادة؛ ليس لديها ما تعطيه لمن حولها سوي الدعاء، روحية هي من فرحت به واتخذته ولداً، كم تمنى لو وجد بين بنات حواء مثلها؛ لتزوجها على الفور؛ كلما لمعت في رأسه فكرة أنها خسارة في هذا الصالح جامد القلب أزاحها من خاطره بسرعة البرق، بدل ملابسه وطرح جسده على الفراش ينظر إلى الساعة المصلوبة على الحائط؛ يقطع سكون الحجرة ذلك الصوت المزعج المنبعث من العقرب الأحمر فيخاطبه قائلاً: لكم أنت أكثر رعونة مني، ماذا لو كنت بهدوء هذا العقرب الكبير؛ فهو لا يتحرك إلا كل ساعة وبلا جلبة؛ إنه لشبيه أخى صالح؛ ثم نام على إثر خلط الدواء بالشراب..

(9)

الهاتف يصدر وميضاً متقطعاً، فقد إعتادت أن تجعله صامتاً حال غيابه؛ كي لا يقطع صوته الحاد سكون ليلها الرهيب، دائما ما يطلبها بالنهار كما أنه دائماً لا يغير عاداته؛ تلقفت هاتفها فى وجل لتجدها على الجانب الآخر تقول: أخبارك إيه يا آمال؟ من لقى أحبابه نسي أصحابه ولا إيه؟ فبكت عند سماع صوتها وقالت: سحر أخيراً افتكرتينى فقالت: مشاغل والله أنا ناويه أجى أزورك ممكن توصفى العنوان؟ ففعلت ووعدتها أن ترسل لها من يحضرها من محطة القطار، وإنتهت المكالمة سريعاً، ثم عادت إلي وحدتها؛ حيث لا أنيس إلا ركلات متتالية من جنينها، محملة بمتعة ممزوجة بالألم كسائر متع حياتها، ولا جليس إلا زيارات خاطفة بين الحين والآخر من روحية وثريا، حتى صابر صار حضوره أقل من غيابه متعللاً بالعمل والرزق، يأتى كي يترك لها ما يكفيها من مال، ثم يوصي الأهل بحسن رعايتها ويسافر؛ هشت حين تذكرت زيارة سحر، ثم عادت تجمع أذيال بسمتها حينما ترددت فى جنبات عقلها كلمات صابر عنها، ثم قررت ألا تفتح معها هذا الأمر مطلقاً حال زيارتها، حتى لا

تخرق قوانين وآداب الضيافة، دلفت إلى حجرته التي وضع بها منضدة قديمة وأسماها حجره المكتب؛ وبنوع من الفضول ظلت تبحث طويلاً عن الكتاب الذى غير مسار حياتهما، وجعله يرى منها عبئاً عليه، وبالفعل وجدته وسط كومة من الكتب التي تآكلت أطرافها بسبب رطوبة الأرض الموضوعة عليها، مدت يدها فى وجل، وكأنها تشرف على ارتكاب جرم؛ فهي تعلم أن قراءة هذا الكتاب موقوفة علي آل فتح الله، ظننت أنها قادرة أن تتصفحه سريعاً؛ ولكن هيهات فإن أسلوب الحكي فيه جذبها، فاطمئنت إلى أن تجعل منه عوناً لها على غربة النفس والمكان، غابت في القراءة؛ حتى أن بدنها لم يعد يقشعر من أزيز الفئران في شقوق الطين كما كان، تشعر بأمان عجيب في حضرة هذا الكتاب؛ أمان غاب عنها منذ أن هجرها الزوج، لم تشعر بطول الجلوس إلا حينما تألمت فقرات ظهرها وعنقها؛ فإستلقت علي حصيرة من القش تغطي جزءاً صغيراً من مساحة الحجرة، ثم تذكرت أنها ما نظفتها يوماً فتأففت، ولكن الإرهاق حال دون قيامها، عاد أزيز الفئران المزعج ليعزف مع نقيق الضفادع سيمفونية الليل المعتادة..

نزعت جسدها على الفور وكأنها تخلصه من براثن شوك مدبب، خبأت الكتاب كما كان، وإنطلقت ترفع صوت التلفاز عالياً كي يقطع هذا اللحن الجنائزي البغيض، تصارع الليل كي يمر وينبلج الصباح، تنظف البيت ، تضئ كل مصابيحه، تحاول أن تنام مرات عديدة؛ حتي أنها فكرت أن تهاتفه ولكنها أحجمت؛ لأن هذا كان إختيارها ندمت أنها إختارت؛ يبدو أنها لم تعتد أن تختار، ظلت تحارب الهواجس بسيف عقلها: لما لا أضم وحدتي إلى وحدة ثريا كي يزولا، بعدما خلصت إلي تلك الفكرة وأنها لا محاله لابد أن تهجر هذا البيت الموحش؛ عادت للتسويف قائلة: بعد زيارة سحر سأفعل ثم غرقت في نوم مرهق..

(10)

للانتظار ألم رهيب؛ لم يعتد عليه، يجلس على المحطة منذ ساعة، قطار متأخر وحر يذيب جسد الرصيف، حتى أصبح علي وشك الانفجار؛ ينظر إلى الوجوه الصامتة تارة وإلى أطراف الرصيف المتآكلة تارة أخرى، وكلما زاد ملله ألقى ببصره بعيداً كي يستطلع القدوم المنتظر، لا يعرف شكل من ينتظرها؛ ولكنه حتماً سيعرفها فور وصول القطار، لابد وأنها ترتدي زي المدينة المختلف، ملأ الهاتف جيبه بالضجيج، أخرجه على الفور فأخبرته آمال أن القطار على وشك الوصول، كما أخبرته بلون ثيابها وأنها قد أعطتها رقمه؛ كي تتصل به فور نزولها على الرصيف وشكرته على شهامته وأغلقت الخط، قام من مكانه فرحاً؛ يبشر من بجواره بإقتراب وصول القطار، وراح يقطع الرصيف منتظراً، يتعجب من أفعالهما؛ لما لم تعطه رقمها من قبل الخروج من المنزل، تناسى كل شئ فور سماع صفير القطار، إنفرجت أساريره، أخرج الهاتف من جيبه إلى يده، أخذ يتفحص وجوه النازلين، حتي رن هاتفه وقبل أن يفتحه رآها هناك عرفها من الوصف.. إقترب منها قائلاً: أستاذه سحر؟ فقالت: أستاذ

سليم؛ اشار برأسه أن نعم، حمل الحقيبة عنها وسار أمامها دون أن ينطقا بحرف إضافي، محمل بحقيبتها والإعجاب بجمالها، فلم يكن يتوقع أن تكون جميلة كحورية، رقيقة كنسمة ربيع صافية، تسير خلفه بحياء مصطنع حتى خرجا من محطة القطار، أوقف التوكتوك وأشار لها فولجت داخله، فإضطرتهما الظروف أن يكونا بجوار بعضهما لضيق لمكان، يطلق إليها نظرات مختلسة بين الحين والآخر، بينما عقلها يراه ذلك الشاب الثري الذي قد يحقق لها طموحاً طال البحث عنه، فتسعد نفسها وهي ترى نظرات الإعجاب تنسكب من عينيه بحياء قروي لذيذ؛ تمنت أن تطلق ضحكات ماجنة ولكن هذا قد يخرجها من حالتها التمثيلية، فقررت أن تخنق تلك الضحكات كي تتردد في جنبات صدرها ككرة جلدية، يتقافز التوكتوك كخنفساء برية يشق الاتجاهات المتباينة بين السعة والضيق، حتي صار على مشارف القرية، يلاحقهما النسيم الطيب يداعب الأنوف، فتثمل بنشوتة معبرة عن ذلك بألفاظ الإعجاب؛ فيرنو إليها مسروراً بقطعها حبل الصمت.. ثم يقول: نورت عزبة الترسانية يا آنسه سحر تبتسم ابتسامة مزهرة قائلة: منورة بأهلها أستاذ سليم، شكل الحياة هنا جميلة؛ فابتسم لها بكامل أساريره ثم قال: حمدا لله على السلامة إحنا وصلنا؛ ومثل أي شئ جميل مرت الرحلة كضوء خاطف، حمل الحقيبة

وسار أمامها حتى غابا فى بهو المنزل بعدما فتحت آمال الباب، تركهما كي ينعما باللقاء وانصرف حيث فراش أحلامه الذي لا يغادره إلا من أجل السهر أو العلاج، عقله يصب الأفكار في خاطره بأسئلة عديدة ما الذي يمنعه من التفكير في الزواج؟ هل المرض؟ أم لمجرد التمرد على طلب الكبار؟ هو نفسه لا يدري، جف ريق صالح وصابر في إقناعه دون جدوى، وها هي تجعله يفكر دون أن تنبس بحرف؛ فكر أن يدخن سيجارة؛ ولكنه تذكر تعليمات الطبيب فعدل عن قراره؛ ما باله اليوم لا يتمرد؟ هل صار لحياته معنى فجاءة؟ كم من مريض يتزوج؟ علامات الاستفهام تتقافز أمام عينيه تملأ فضاء الغرفة.. تمنى أن لو تحدث إلى روحية أو صابر، ولكن العمل يبعدهما، حياة عنيفة لا يمكن أن يكسرها التمرد؛ فها هي تطعم الطيور وتعد طعام الظهيرة قبل أن تدخل الزريبة لإطعام الماشية والخروج باللبن الحار في أواني الفخار؛ تدور في أرجاء البيت كملكة النحل بالرغم من أنها تعمل كشغالة، تفرغ من طاقتها المتجددة كل يوم كي تسعد الآخرين؛ كم تمنت أن تنجب فتاة تساعدها وتعلمها كي تكون عوناً لها ولكن القدر عادة لا يستجيب، فقد أعطاها التوأم الحسن والحسين بعد فترة انقطاع طويلة خافت خلالها من أن يتزوج صالح طلباً للإنجاب، ولم تجد بداً من أن تناشد ثريا أن تدعو لها كل صلاة حتى أتى التوأم

الصغير المتعلقان بأذيال ثيابها ليل نهار، يذكرانه بعهد قديم، حتى أنه تمنى أن لو ظل على هذا الحال حتى مات، حنانها كان يشمله تعوضه بما تحفظ من حواديت الجد كل ليلة حتى ينادى عليها صالح فتتركه وحيداً وتغادر، الوحدة تنال منه بالرغم من كثرة الأهل والأصدقاء من حوله، يبدو أن الوحدة والألم قدر مكتوب على آل فتح الله.. فها هو صابر ظل وحيداً غريباً حتى بعد زواجه، كما أنه ترك زوجته للوحدة والغربة هنا؛ فقد أصابتها اللعنة بمجرد الزواج منه؛ إلا أن الله قد منحها سحر تلك التي قطعت الطريق الطويل كي تؤنس وحشتها وتجعل لكل الحياة في الترسانية قيمة، وكلما قفزت أمام عينيه صورة إبهامها المبتور أزاحها بعيداً متعللاً: في كل وردة شوكة، إلتقط هاتفه يعبث بشاشته وإنتظر حتى رد عليه، تحدث معه عن الأحوال والشوق إليه وكيف أن العمل يأخذه منهم، ثم سأله عن سحر وأخبره أنه قد استقبلها وقام بتوصيلها إلى بيته؛ فتغيرت نبرة صوته من اللين إلى الحدة؛ وأغلق الهاتف دون سابق إنذار؛ تعجب من فعلته، وظل يبحث له عن أعذار، تركه ليطلب زوجته وبعد شجار طويل طلب خلاله أن تتخلص من هذه المرأة بهدوء ولكنها رفضت وناشدته تأجيل النقاش حتى يعود..

(11)

بقوة التمرد استطاع كعادته أن يتحدى الجميع؛ لما لا يجمع القدر صاحب القلب السقيم بصاحبة الإبهام المبتور؟ كلاهما أصابه من الدنيا ما أصابه؛ عجز ومرض وجهان لعملة واحدة، هي التي استطاعت بسحرها أن تجعله يميل إلي الزواج، بعد أن كان رفضه له مطلقاً، عجباً لك يا صابر؛ يرفض دون أسباب، بالرغم من أنه قد تزوج من رفيقتها الوحيدة، مهما كانت الأسباب فقد قرر أن يمضي في طريقه حتي ولو بعث فتح الله من قبره يرفض وفي يده ألف ألف كتاب، تلك المضغة التي يحملها بين جوانحه هي بوصلته الوحيدة برغم مرضها: فأنا أنا لم أتغير كما يظن أولئك المخبولون فقط نسوا يوم تمردي الأول؛ واقترابي من سيقان دكة النورج حتى مسست عباءة أبي بكفي، كل ما تذكرته عقولهم الحبلى بالغباء أن آخر العنقود سكر معقود؛ ولذا فقد قرروا في آن واحد وكأنهم جميعاً علي اتفاق أن إرادتي واختياراتي ملكاً لهم؛ مازال يحدث نفسه سراً بتمتمة من شفتيه؛ يخاف أن يعلو صوته فيظنه الناس ممسوساً، فيبلع سيلاً من الكلمات داخل جوفه؛ ولا يصعد على لسانه منها إلا القليل الذي

سرعان ما يختفي وسط ضجيج الباعة وقعقعة عجلات القطار، سيمفونية عالية تتصارع مع أفكار رأسه المتمردة؛ فطرحها على جدار القطار الحديدي وراح في نوم قلق. يهبط من القطار علي صراخ طفل تائه؛ احتضنه وكأنما يحتضن ذاته، يطمئنه بكلمات كثيرة فرفع الطفل رأسه إليه فلما رأى فيض الحنان يسيل من عينيه إطمأن، ثم قال: إن أهلي في هذا المكان خذني إليهم، فإنهم ينكرونني، احتضن يده الصغيرة بكفه، فزع حين وجدها بلا إبهام، نزل به إلي الحارة الضيقة كما أشار له؛ قوم يأكلهم الفقر والمرض، أصوات عالية مخيفة وكأنها زئير الأسود، فسأله عنها، فقال: هذه الفئران يا عمي.. فقد سمنت لأنها تتغذي علي أصابع الأطفال المهملين من أمهاتهم بسبب إنغماسهن في الكدح والشقاء طوال النهار والليل فقال بصوت حزين: فهل أمك فيهن؟ فابتسم ابتسامة واعية أزالت براءة الطفولة من وجهه ثم قال: هي من تنكرني. ولم لا وقد نزعت ثيابها عند كل باب من أجل الطعام والكسوة حتى خارت قواها، وكرهت رائحة السكر التي ما نجحت يوماً أن تجعلها تنسي، فألقت بي علي قارعة الطريق.. قبض علي يده بحنان أب، وكلما انحدارا مال بهما الطريق؛ وكأنما يهبطان من جبل إلي بئر، أشار إلي البيت بكفه المحررة قائلاً: هذا هو.. هذا هو.. ثم جذب يده وكأن القوة قد عادت إليه، غاب في منزل بلا باب،

فليس فيه من الأسرار ما يحتاج الي ستر، وليس فيه من شئ كي يغري اللصوص، يلج خلفه، ليجدها أمامه ولكنها صارت أنحف، تغير لون وجهها كثيراً بعدما أمسي بلا مساحيق، تحتضن طفلاً صغيراً وتلقمه ثدياً جافاً كلما عجز عن إسكات صراخه؛ نزعته من فمه وألقت به علي الأرض كخرقة بالية، فقال لها: سحر ما الذي ألقي بك في هذا الجب، فقالت والضحك يبعثر حروفها: قسمة ونصيب ثم احتصنته حتي ذاب بين ذراعيها، راضياً بما تمنحه إياه أكثر من طفلها المهمل هناك بين أفواه الفئران، صدمات تتجول داخل جمجمته، يد ثقيلة على كتفه تهزه بعنف؛ يلتفت مذعوراً؛ فيقول له: هذه محطة مصر يا ولدي لقد وصل القطار، ثم يهرول كي يسبقه إلي النزول يهبط من القطار كقطرة زئبق تسيل من ثقب ضيق بين كتل البشر المتلاطمة.. يقف علي الرصيف دقيقة كي يفيق؛ يفكر في هذا المنام العجيب وكيف رتب عقله الباطن كل هذه المشاهد؟ يبدو أن شجرة حكايات فتح الله التي زرعها في عقله تصب بظلالها في أوردته، يخرج هاتفه ويفر من صخب الرصيف إلى طريق أكثر صخباً؛ يقول لها مداعباً أنه انتظرها على محطة قطاره وهي لم تفعل، فتخبره بأن العمل حال دون ذلك وتعطيه عنوان المطعم حتى يأتي وينتظرها وكأنه زبون عادي حتى تنتهي من دوامها وتخرج معه؛ كما شددت عليه ألا يتحدث معها

إلا كزبون، فقال: تمام إقفلي بقي علشان أنا جعت.. فضحكت ضحكتها الشهيرة التي جعلته كاد أن يطير..

(12)

<u>صابر أبوالفتوح</u>

حال دون إتمام الزواج كثيراً دون جدوي، هم أن يخبره بكل شئ عن سلوكها المريب، وحبها للمال استعدادها في بذل كل غال في سبيله، ولكنه سرعان ما عدل عن قراره خوفاً علي قلبه المريض؛ فهو حتماً لن يتحمل تلك الصدمة المهلكة، وقع بين إختيارين أحلاهما مر، وكعادته إختار أن يضع رأسه في الرمال ويترك الكارثة تمر حتى لو على ظهره، طالما لم ترها عينيه فهو في الأمان؛ ولذا فقد سجل اعتراضه دون أسباب، وعاد كي يهتم بطفله وزوجته، سلم الكتاب لعمه دون أن يتم قراءته، فقد قرر أن يتوقف ويحافظ على ما تبقى من عقله قبل الجنون، كما قرر أن يتمرد ولكن ليس برعونة سليم؛ فيخسر الجميع، أراد أن يأخذ زوجته وولده ويطير عائداً إلي شقته حتي يجتمع الشمل وينسى تجربة القرية والكتاب حتى اقترح عمه صالح أن يبدأ في بناء بيت جديد له على نصيبه كما فعل مع سليم وثريا؛ حتى يطمئن إلى أنه نفذ وصايا الكتاب وأراح فتح الله في قبره.. كما طمئنه بأن ربح أرضه عن الفترة الماضية كفيل بإقامة

البيت وتأثيثه كأفضل ما يكون، وافقت آمال بالطبع؛ لأن كرهها كان للفئران وليس للمكان، يلقي بنفسه علي الفراش بجوار طفله يتحسس ملامحه بيده، ملاك نائم تذكر يوم أن تلقي خبر حمله، ظن أن مشاعر الأبوة لن تتحرك تجاهه أبداً، ابتسم حين تذكر نبوءة الكتاب؛ ضحك حين أبصر ملامحه الوديعة وشعره الملتصق برأسه، أمسك يده في حنان يقبلها، حتي دخلت آمال تخبره أن عمته ثريا بالخارج تريد أن تري الولد وترقيه؛ فنادي عليها فدخلت تمشي هوناً بزيها الريفي البسيط، والمسبحة الخضراء في يدها، ثم أمرته ألا يطيل النظر والتقبيل في وجه الولد؛ ثم قالت: ما يحسد المال إلا أصحابه.. جلست علي مساحة فارغة من السرير، تناولته في حجرها وظلت تردد رقيتها بين كفيها ثم تمسحهما على بدن المولود فيبكي فتعاود الكرة، حتى اطمئن، ناولته لأمه قائلة: خدي بالك منه دا من ريحة الغالي.. ثم رفعت كفيها للسماء قائلة: رحمك الله يا أبا الفتوح.. ثم غمست في كفه الصغير لفافة من المال، وقامت تتحرك صوب حجرة الجلوس وصابر يسير خلفها باحترام شديد تجلس علي الأريكة وتأمره بالجلوس بجوارها فيطيع.. فتخبره بأن العمل في بيته الجديد قد أوشك على الانتهاء، وحتما سيغادر مع أهله، كي يعود البيت عليها فارغاً من جديد؛ فوعدها بأن يزورها كل يوم حتي تسأم منه ومن ولده

الصغير فضحكت حتي بدا بريق أسنانها الصناعية، ثم قالت: عمرى ما أزهق من الغالين.. ثم لملمت بقايا ضحكتها تقول: والنبي تبقي تزور سليم وتطمني عليه مينفعش نسيبه كده لوحده، أنا عارفه أنك زعلان منه بس خلاص بقي أمر واقع ومش عايزين نحسسه أن مفيش وراه عيلة وناس فأومأ برأسه موافقاً، فعادت إليها بسمتها وارتاحت..

(13)

<u>سليم فتح الله</u>

ما هذه المرأة التي تزوجتها؟ أبغضها حين تغيب كما أشعر أنني لا أرغب في رؤيتها ثانية، وما أن تحضر حتي تأخذني نعومة ملمسها لما وراء السحاب تداعب جلدي وكأنها نسمة باردة في يوم صائف، تفصّل لي من رغباتي المكبوتة ثوباً ضيقاً يصعب إنتزاعه، حين آراها تقرأ أحلامي وتحققها وكأنها جنية البحر القادمة لتوها من حكايات فتح الله، قدومها يذيب الأجواء الثلجية؛ ويفك أسر الروح من أحبال النفس التي استمرأت الوحدة والضياع ولكن غيابها يعيدني إلي عهدي القريب بهما؛ فأستعيد طعمهما المعتاد فتحار نفسي كما يحتار السبّاح وهو وسط البحر بأي الشاطئين يلوذ؛ فيغرق في المنتصف، المنتصف هكذا هي حياتي كلها؛ نصف متعلم ونصف جاهل، شاب سليم بقلب سقيم، نصف ملاك ونصف من شيطان، من أي النصفين كان أبي؛ ومن أي النصفين كانت أمي؛ أمي تلك التي تزوجها فتح الله وهو مقبل علي إغلاق دفتر حياته فقط كي يحضراني للوجود؛ ويسافران بعدها واحداً تلو الآخر إلي عالم الغيب، خمس سنوات فقط؛

لم أشبع من حنانها، ولا من حكاياته؛ تجربتي في الحياة، إما نوبة مرض تعيسة، وإما صحة مؤقتة سعيدة بالخطايا والذنوب، غريب حقاً أن النوبة لم تأتني منذ أن تزوجتها؛ بالرغم من توقع الأطباء عكس ذلك، كرهت اتساع سريري بدونها، كرهت ذهابها للعمل ومكوثي في هذا البيت اللعين، الوحدة في بيت صالح لها جمالها برغم ارتفاع أسوارها، يأخذني الحنين لقهوة هدهد ولروحية، أحن إلي صوت الدجاجات وهي تطير وراءها لتمسكها وضحكاتها مني وأنا لا أستطيع التحليق أمامها فتفر من بين ساعدي فيحمر وجهي فتقول: هتفضل طول عمرك طيب.. وتنقض عليها فتكون في يدها في غمضة عين تصيح، ثم تشير إليها قائلة: هذه لك وحدك كي تقويك.. ليتني ظللت أتمتع بوحدتي ودجاجاتك، أخبئ وجهي في السور حين تقع عيني على مشهد الذبح اللعين فتضحك ثانية، وتشاكسني بيديها المختلطتين بالدم، وكلما التفت نحو السكين الملوث؛ أعود لاختبائي وتعود لضحكاتها وسخريتها من كل أبناء هذا الجيل، ما سأمت سخريتها يوماً برغم تكرارها، صوتك يحيطني بالسخرية ذاتها الآن وأنا متكوم في فراشي كعروس تنتظر زوجها القادم من العمل؛ أرى أنني قد تخلقت بأخلاقك وأنت تجلسين منهكة على طرف سريرك بعد يوم شاق تنتظرين عودة صالح من الحقل..

رنين جرس الباب يقطع حديث نفسه فيقوم منتشياً بأن حاجز الصمت والوحدة آن لهما أن يتكسرا بقدوم أي إنسان حتي ولو كان بائع الحليب، يفتح فيجده أمامه فيحتضنه ويبكي قائلاً: أخيراً إفتكرت سليم يا صابر.

(14)

صالح فتح الله

تختلط الأفكار في رأسه بهواجس ما قبل النوم، يتمدد في فراشه بعد يوم شاق؛ عمل في الحقل ومناظرة لعمال البناء وصاحب الشأن يلهو مع ولده يبدو أن المقام مع صاحبة القلب الكبير قد راق له، قلبه يحتار بين الاطمئنان والقلق؛ سعيد لأنه أتم تكليفات الكتاب علي أكمل وجه، خائف لأنه يعلم أن بعد التمام نقصان حتمي، فما عاد الجسد يتحمل كما كان، والأولاد مازالوا صغاراً بلا تجارب ولا حكايات؛ فهم لم يدركوا فتح الله ولا أبا الفتوح، فقط هم أولاد صالح الشقي، صاحب الفأس والمحراث، الحسن والحسين في مرحلة الصبا كعيدان خضراء، وهو يشعر أن بنيانه يتأهب للسقوط، تماما كما قال فتح الله في كتابه وهو يتحدث عن سليم؛ مع الفرق في العمر والقوة؛ فقد كان فتح الله أسن منه ولكنه كان الأقوي، وكان سليم أصغر منهم ولكنه كان أشد، ويح الحياة التي ما تسير إلا في طريق منتظم نحو الفناء، فتذبل الأجيال برغم الراحة، وتضعف برغم الغذاء، فتشيخ الأبدان قبل أوانها، كما تشيخ الروح منذ الصغر؛ وكأنها أرواح مستعملة من قبل،

ضحكات طفولة باهتة، عنفوان شباب زائف، لا يقوي علي حمل ثيابه فكيف سيحمل وصايا فتح الله: إيه يا دنيا، تسربت أيامك كحبات عقد تمزق خيطه تتفرق تائهة بين زرع وبناء، طعام وكساء حتي ذابت وتبددت، وتاه أولاد فتح الله في كل شعب؛ صابر في آماله، سليم في سحره، وأنا في زرع وبناء ولم ينج إلا من مات، شاخت جدران الطين فقويتها بالأسمنت فصارت أجف زال حنانها بمقدار زوال الماء منها، زالت الحكايات من صحن الدار بعد تقسيمها، زالت أبراج الحمام بعد تعلية السطح، كل شئ تغير حتي ذلك الجسد الذي ما استطاعت العقاقير أن تشده كما يشد هذا الجدار حزام الأسمنت، نبع الحياة يجف يا فتح الله وقد أتممت رسالتي تجاه أولادك، ولكن أولادي ضائعون؛ لم يذكرهم كتابك إلا بضمير غائب، ولأن كل فرع من أصل جذره؛ فقد أوصيت لهم بالكتاب والإستمرار في طريقي؛ حيث الزرع والبناء، وكما أن فرع الليمون لن ينبت موزاً، فأولاد صالح لا يمكن أن يكون لهم إلا الشقاء ولن ترتاح أبدانهم على دكة النورج وهي مرتدية العباءة البنية، وليس لهم من الكتاب معرفة وعلماً وإنما تنفيذ تعاليمه فقط دون جدال، مازال قلبي يحترق على سليم الذي ما ورث من آثارك شيئاً، فلا كتاب ولا عباءة ولا عصا ولا دكة؛ وكأنه قد سلك طريق التيه بقلب سقيم أحب ولم يحسن الاختيار فساقه شيطان حبه

ليكون من سكان المدينة، فماذا عن أولاده حتما سيكونون أكثر بعداً وتيهاً، لو كتب الله لي الاستيقاظ سأتصل بك يا ولدي وأسترضيك، وأناشدك العودة.. ظل يدور في رحى هواجس ما قبل النوم، تحيط ببدنه هالة من إرهاق طول اليوم حتي راح في نوم مضطرب بمزيد من أضغاث الأحلام المكللة بصوت يزعج أهل بيته...

(15)

<u>حسين صالح</u>

يبدو أن الحلق حين يصارع موتاً

قد يصدر صوتاً

غريق يتقاذفه الموج العابث

لايحترم وقار الشيخ

ولا يرحم أطفالاً

قد تنهي الدنيا بهذا الفعل آمال منهم

أو تقطع دابر حصن أمان

وتحيل الأمر إلى كيان مظلم

بيت مقفر، كتاب مهمل

خراف تعوي بجواري

تبحث عن راعي

أوضاع تشبه أوضاعي

وسط غابات الطين غاب

عند الباب.. طفل قد كسر ذراعي

وأشير إليه فلا يسمع

فأنادي وأنادي

أبتاه قد هلك فؤادي

والقفل على الباب كبير..

كتب هذه الكلمات علي غلاف دفتري الجامعي وأنا أتأهب أن أذهب هذا اليوم عند قبور العائلة؛ كي أتحدث إليه عند الباب الحديدي كما اعتدت منذ سنين، كان اليوم مختلفاً، درت دورتين حول القبر أتفقد الشقوق الناجمة عن مرور الوقت كي أسدها بالطين؛ ودار عقلي دورتين حتى مرت من أمامي صور اليوم كله، أمي وهي تدخل كي

توقظه فلم يستيقظ، صوت صراخها الذي يوقظ أموات الترسانية الغارقين في دوامه جلب الطعام لصغارهم أو النائمين قليلاً كي يتأهبوا لذلك، صرخة طارت علي إثرها العصافير الكامنة علي سطح الحظيرة المتبقية من أطلال البيت القديم، تلبي الصرخة كل الدنيا؛ تتعثر ثريا في خوفها، كما يتعثر صابر في ملابسه الملقاة جوار سريره، تبكي آمال لأول مره؛ تشعر أن رياح اليتم قادمة بقوة من الجانب الشرقي لمكان إقامتها لتسكب ثلجها علي خلوتهما؛ فتقفز داخل عباءتها وخمارها الأسود؛ وكأنها تتأهب لخوض معركة سلاحها الصراخ ولطم الخدود، ليقفز زوجها في جلباب أبيه الكشمير، الذي ما وضع علي جسد إنسان منذ ذلك اليوم الذي إرتداه أبوه وهو يزف فتح الله إلي قبره، ما أشبه الليلة بالبارحة..

تتعثر خطوات الكون القادم نحو سريره، تدوس الأحذية المتسخة أبسطة الأرض البراقة، يدخل طبيب الوحدة بسهولة في زيه الأنيق يخرج بصعوبة منزلقاً من بين أكتاف الرجال، لا يلتقط أنفاسه إلا علي الطريق، مات صالح؛ سمعت عمتي ثريا وهي تقول: إتحلت العقدة التانيه يابا.. فلم أفهم ولم اسأل، كل ما كنت أذكره أنه قبل ذاك اليوم

بيوم، كان يداعبني ويجذب شعيرات ذقني النابتة حديثاً ويقول: والله وبقيت راجل يا حسين..

عاد من رحلة ذكرياته ينظر نحو القفل الصدئ، فراودته فكرة أن فتحه سيكون صعباً، فإستعاذ بالله من هواجسه طالباً منه السلامة للجميع، ولكنه بحث عن كيس بلاستيكي ولفه حولة؛ لحفظه من عوامل الجو، قرأ سورة يس، وأسمعه شيئاً من أشعاره التي كان يحبها، وأخبره أنه بعد قليل سيصير مهندساً كما أراد له، كما أخبره بأن حسن يقوم مكانه؛ برعاية الأرض وحفظ الكتاب، وطمأنه أن سليم قد عاد بزوجته وولده الطويل، وابتسم قائلاً: يبدو أن طول فتح الله قد ورثه ابن عمي سليم وحده..

وطمأنه أن صابر يعيش في البيت الذي بناه له مع زوجته، إلا أنه لم يذكر له شيئا عن تلك الحرب التي تشتعل كل يوم بين آمال وسحر؛ فقد نسيا صداقتهما القديمة بعدما صارا من عائلة فتح الله، ولم يذكر له أن صابر حاول مرة أن يكسر قفل الخزانة ويسرق الكتاب؛ ولما أمسك به ترجاه ألا يفضح أمره لأحد من الناس؛ فحفظ السر في جوفه حتي أنه لم يفشه أمام الباب الحديدي فيكدر صفو النائمين

خلفه، لملم دفاتره، وألقي علي القبر نظرة وداع وسلام ثم سار سيراً وئيداً حتي إختفي بين شواهد القبور العالية

*****

عاد إلي منزله وقد علت الأسمال ملابسه وحذائه، يحمل دفاتره ولوحاته، إنه عناء السفر المعتاد من وإلى الجامعة، يختلط بعناء النفس التي ذهبت لزيارة الحبيب النائم في قبره، وعادت دون أن تشبع؛ ولا يمكن لها أن تشبع حتي لو بثت له كل الوساوس والمخاوف ولم تخف عنه شيئاً، لأنها انتظرت كثيراً توجيهاته دون جدوى، استقبلته روحية بحنانها المعتاد، وحسن غائب كالمعتاد، وسيتناول الطعام وحده كالمعتاد؛ فقد ألفت روحية الصوم بعد وفاة صالح، وحتي ثريا كلما زارها وجدها صائمة، كل الحياة تدور بشكل روتيني معتاد؛ لم يكسره إلا بعض الزيارات الخفيفة من سليم وولده التي تنزل على وجه الوقت كرذاذ ماء بارد، ولكن صابر أصبح مقلاً جداً في زياراته؛ بعد واقعة محاولته كسر الخزانة وسرقة الكتاب، لم يعد قادراً علي وضع عينه في عينيه، نظر إلى الطبق يحدث نفسه:

ليتني تركته يفعل، ليتني ما هبطت الدرج إلى المضيفة وقتها، ما جدوى أن يصير هذا الكتاب بيننا، وما جدوى تمسك صابر به الآن وقد كان يسخر منه من قبل، ثم دار مع اليوم كالمعتاد بعد الغذاء قيلولة ثم استيقاظ باهت مكلل بصمت وفراغ..

فكر ذات يوم أن يعيد إعمار أبراج الحمام وشجعته آمال علي تلك الفكرة ثم نظرت إلي ولدها حمدي وكأنها تسأله عن رأيه فإبتسم قائلا: موافق يا ماما وهساعد حسين في كده؛ طعم الحمام لذيذ جدا..

امتلأ فمه بالابتسام حين قفز في خاطره ذكر حمدي، ذلك الفتي الذي لا يحب التعليم، يقضي معظم اليوم أمام جهاز الكمبيوتر والانترنت يبدو أن هذه العائلة تتأهب للمادة تاركة أصحاب الروح وليمة للديدان في قبورهم، وما هي إلا دقائق وامتلأت المضيفة بأصوات علي غير العادة، صوت حسن واضح وهو يرحب بهم ويدخلهم، هبط الدرج عله يجد بين الضيوف من يكسر وحدته، انقطع خيط صوتهم حين طرق الباب، قام حسن مسرعاً يدخله بوجه أحمر، قدمه للضيوف ولم يقدمهم له، جلس دقيقه مرت عليه كأنها عام؛ ما أسوء أن تكون ثقيلاً علي قلب توأمك، حاول ابتداع كذبة وهو يعلم أنه مكشوف؛ ولكنها كانت لحفظ ماء الوجه أمام الضيوف، فقال: الأساتذة من

أمهر الخطاطين بمصر.. جم علشان يعملوا لي يفط الإنتخابات؛ أنا ناوي أدخل البرلمان..

كاد الضحك بداخله أن يفر خارجاً؛ ولكنه سيطر عليه بلجام الصبر فهو يعلم جيداً أنه قد قرأ كل دساتير مصر التي لا تسمح بترشيح من هو دون الثلاثين فرد عليه بقول مقتضب: ربنا يوفقك.. ثم انطلق صاعداً مرة أخري يدس رأسه بين هذه الأوراق ويكتب هذه الكلمات ويضحك كما يحلو له، وبصوت عال؛ فما عاد في الدنيا من يسمعه إلا هذه الأوراق وباب القبر الحديدي..

*****

طوى الأوراق فجاءة ونحى القلم بعيداً بعدما تذكر أن بقلبه هموماً كثيرة لا يمكن أن يغتسل منها أمام أوراق أو باب حديدي قصير صدئ، ينشق قلبه كل يوم مرتين؛ مرة حين يراه خارجاً في صباحهما الباكر يتدحرج نحو السيارة مثل كرة آداميه وكأنه مصنوع من القطن لا من اللحم الطري المتهدل الذي لا يتناسب مع كونه يعمل صانعاً في المدينة، فبدانة جسده المفرطة وسماجة حركته ترسم مع حمله لأدوات النجارة رسماً غير مألوفاً وكأنه لرسام كاريكتيرى عابث، دائماً ما

ينسكب بلحمه أمام الناس ليسد فوهه السيارة حتى يكون أول الداخلين، يتسرب من خلفه باقي الركاب من الطلبة والصانعين، يلقون عليه نظرات حارة ولكنها تفشل في كل مره أن تخترق وجهه المثلج وملامحه الميتة، والمرة الثانية؛ حين يراها تفرد ساقيها علي سطح المنزل ببياض يعكس ضوء الشمس نحو نافذة غرفته وكأنها مرآه، تتعلل لزوجها أن الأطباء نصحوها بأنها بحاجه لفيتامينات الشمس، زوجها كلما جاء ذكره هو الأخر زاد شق قلبه إتساعاً؛ رائحة أبيه التي يحملها في ملامحه تجعله يشفق عليه كل مرة يراها تغازل النجار اللئيم من فوق السطح..

وهو مايزال دائم النوم لم يتغير، فلم ينتعش قلبه السقيم بالزواج ولا بالإنحاب، لم يبق للعائلة عماد باق بعد دخول الأغراب من أهل المدينة علي رجالها الكبار؛ سليم وصابر، ينعمان بدفئ عائلي مزعوم يراه الجميع سعادة غامرة ولا يعرف الحقيقة أو علي الأقل ينكشف له جزء منها إلا من يطل من هذا الشباك؛ معظم عراك النساء بين سحر وآمال ينتهي بأن تذكر كل منهن الأخرى بأنها تعلم عنها الكثير؛ ولا تسمع وتري إلا من هذا الشباك، نظرات سحر التي تمتد وهمسها الذي يطول مع الجار البدين الذي يعمل نجاراً..

النجار البدين ذلك الجار الغربي؛ الذي اشتري جزءاً من نصيب ثريا قبل البناء؛ كي تدبر الأموال لولدها المولع بالسفر كي يسافر، ما كان يسمع له صوتاً طيلة أعوام طفولته، إلا في هذه الأيام فقد أصبح دائم الصعود للسطح، في أوقات متغيرة بين الصباح والمساء، حتي أنه سمع ذات ليلة دبيب يعبث في ببقايا كراكيب الأسطح المعدنية، حتي ظنه لصاً قام مسرعاً نحو نافذته، سمع صوته الذي يشبه فحيح الأفاعي يقول وهو يشير نحوه: متخافش يا باشمهندس أنا كنت بدور علي حاجة ورجلي اتزحلقت واتخبطت وعملت الصوت ده..

دخل وأغلق النافذة، دون أن ينبس بحرف، ولم يدع له بالسلامة بعد صدمة ساقة ولم يتمنها له بداخله، فهو لم يكره في حياته أحداً مقدار كرهه لتلك الكرة الادمية القبيحة فكر أن يواجه عمه سليم بكل الوساوس والحقائق؛ ولكنه خاف علي قلبه السقيم مثلما خاف غيره، ولكنه لن يدفن رأسه في الرمال كما فعل صابر من قبل، لابد أن ينقذ تلك العائله التي باتت تنتظر السقوط، وليس أمامه من سبيل إلا أن يبسط كفيه علي دفة القيادة حتي لو وافق حسن في تعديل فقرات من كتاب الجد، فقد قرر أن يضع يده في يد أخيه التوأم كي يعبر بتلك العائلة المنكوبة إلي بر الأمان، ويوقف هذيان صاحب المكتبة،

ويقطع نوم النائم، ألقي بنفسه على سريره يريح عقله وقلبه بتلك الكلمات كي ينام نوماً هادئاً وكلما طاردته صورة النجار القبيح أزاحها من خاطره وحرك رأسه على الوسادة وكأنه يمسحها بخده قائلاً: الصباح رباح..

عادة ما يزداد القلق قبيل الفجر؛ رأسه المثقلة بالأفكار تسكب اليقظة صوب العين فتمسي صلبة كالحجر تأبى أن تستجيب لأحضان الجفون كإمرأه ناشز؛ قام علي الفور قبل أن تصير نفسه كرة حائرة بين أقدام الخوف والضغينة، توضأ ووقف يصلي فقد أوصاه صالح بذلك، قائلاً ذات مرة: إن الصلاة في جوف الليل تطرد القلق، وفي ثلثه الأخير تطرد الخوف، ولما هم بالتكبير رأى صورة أقدامها المتلألئه في ضوء الشمس، أزاحها بالإستعاذة وألقي بروحه مستسلماً يمتع لسانه بالترتيل ويمتع قلبه بالإستماع، ظل يصلي حتي شبعت نفسه، جلس للتسبيح والتلاوة، تضرع إلي الله بقلب يملؤه الخشوع أن يرحم الأموات ويلطف بالأحياء، سكون المكان يؤهل النفس للإرتقاء والصفاء، يقطع سكونه صوت إصطكاك المعادن الملقاة على السطح، تذكر النجار البدين؛ هم أن يدعو الله أن تكون ساقه قد كسرت ولكنه عدل، عادت الضغينة تحرق حواف قلبه حين سمع همهمات خافته

ممزوجة بضحكات مائعة، هم أن يفتح النافذة ليعلموا أن الليل ما عاد يسترهم..

ولكنه ظل موثوقاً بالقلق وتجمد الأطراف، لملمت السكينة ردائها وإرتحلت ليحل على المكان قلق مشاغب، إنتزع جسده بحنق محارب ضرب جناحي النافذة براحتيه فظلت تترنح بين الفتح والإغلاق كطائر مصاب، رآه يتدحرج مثل قنفذ بري سمين، يدفعه الخوف نحو ملاذ آمن، بينما هي مازالت واقفة تثبت عينيها في وجهه بلا حياء، حتى طبيعة المرأه لم تدفعها أن تستر ما تعرى من جسدها أمامه، لملمت ثيابها بلا اكتراث وقفلت تهبط الدرج وكأنها عائدة من نزهه خلوية، ازداد غيظة حتى كاد أن ينفث النار من فمه، ما تمني أن يقتل مخلوقاً إلا في هذا اليوم، عاد إلى الوراء مسرعاً، تمني أنه ما استيقظ أبداً، هبط يطرق الدرجات بحنق حتي صار خارج البيت كله، تتبدل داخله الأحاسيس وتضطرب المشاعر، فها هو نسيم الصباح يلفحه ببرودة تذكره بالموت، وها هو حفيف الأشجار يسمعه وكأنه فحيح الأفاعي، سار علي غير هدى حتى علا صوت آذان الفجر، فأهداه الصوت إلى المسجد، يدخل بأقدام خائفة فما يحمله بين عينيه من مشاهد لا يناسب جلال المكان يحاول خلع الأمر كله مع نعليه عند

عتبة الباب أعاد تجديد وضوءه يكرر غسل عينيه مرات عديدة، وقف يصلي متناسياً مجاهداً في درء كل الصور من مخيلته، حتى انتهي للجلوس في انتظار إقامة الفرض، تجول ببصره إلى الباب ليراه يلج من الباب مهرولاً يضم نعله بين كفيه، أعادت إليه رؤيته كل المشاهد وكأنه قد ساقها أمامه ليهبط بها من تل، فتمتم في خاطره: أنت يا صابر سبب كل المصايب دي..

خرج من المسجد يتأبط ذراع أخيه الذي ما انتبه إلى وجوده إلا عند الخروج، وكأن الله قد هداه إليه كي يرشده إلى الطريق، فقال بصوت متقطع: أنا هرجع أسكن معاك تاني، زهقت من السطوح.. فقال: ياريت تنورني، انت اللي كنت حابب العزلة.. ساد الصمت طويلاً والسير الوئيد لا يناسب شبابهما، يدس يده بين ذراع أخيه وكأنه العكاز، يتعجب حسن من حاله هم أن يسأله عما يكدر صفوه؛ ولكنه يعلم أنه قليل الكلام ولا يفصح عما في جوفه إلا إذا أراد كبئر سحيق، ولما انتهي بهما المطاف إلى جوف البيت، قال: حسن أنا معاك في كل اللي أنت ناوي تعمله.. ثم قفز يرتقي الدرج وكأنه صار خفيفاً بعد أن ألقي عنه أحماله بتلك الكلمات، ترك خلفه حسن مبهوتاً بنظر معلق عليه يرتفع معه إلى أعلي حتي غاب عن ناظريه..

(16)

حسن صالح

تسيطر عليه أحلام وآمال، لم يدركها سواه كبيرة تلك الأحلام علي هذا القلب الصغير النابت لتوه من ضعف وقلة حيلة؛ يعلم جيداً أنه لم يتبق ممن قرأ الكتاب إلا إثنان، صابر وحسين، أما ثريا فهو من قرأه عليها صغيراً وهو مطمئن تماماً أن ذاكرتها قد محيت لم تعد تذكر من الدنيا إلا أوقات الصلاة والأوراد، وصابر جبان وحسين وعدني أنه معي فيما أريد، أخذته سعادة غامرة وهو يرى حلمه يقترب، وما سيتم إعادة صياغته في الكتاب شئ بسيط؛ فقرة واحدة تحيل الأمر كله لصالح الجميع، (الأرض كلها تحت يد صالح وأولاده من بعده، ولا تسلم لأي من أسره فتح الله، بل لهم ما يحدد من ريع كل عام)، تغيير بسيط دعا إليه أمهر الخطاطين، واللغويين والرسامين ووعدوه بإنجازه في وقت قصير دون الإخلال بالسياق العام من حيث الشكل والمضمون، اقتربت قبضته أن تحكم زمام الأمور كلها، هم أن يسأل نفسه عن التغير المفاجئ في موقف حسين، ولكنه أهمل الأمر قائلاً: وما يعنيني التغير طالما أنه في صالحي، يبقي أمامي العباءة والعصا

ودكة النورج وأعيد أمجاد هذه العائلة، ثم نظر إلى صورة الجد المعلقة على الحائط يناجيها: خلاص يا جدي زمانك راجع من تاني..

(17)

<u>الكتاب</u>

(أحلام النساء يا ولدي كفيلة وحدها أن تبدد أحلام الرجال؛ فحلم النساء هوي، وحلم الرجال عقل، قد تتهمني وأنت تقرأ هذه الكلمات أن لي موقفاً عدائياً من النساء متناسياً أنني من أنجب وربى ثريا تلك التي تستطيع أن تدرع بكفيها المخاطر عن الآف الرجال، على مثل ثريا فابحث؛ تقي نفسك من السقوط، وتحيط روحك بهالة من إيمان، ترضى بالقليل الحلال، إياك والجمال الزائف في قشرة الخارج؛ آه يا ولدي لو أدركت جمال الروح وأدركك جمالها ستشعر شعور الجسد السقيم حين يمسه الترياق، وآه آه لو أخذتك قشره البدن؛ ستكون مثل من يأكل الطعام المسموم متلذذا بالطعم متناسياً العواقب)..

ظل يقرأ ويبكي وكأنه لم يقرأ هذه الفقرة في الكتاب من قبل، علق بصره مناجياً الصور المعلقة على الحائط: كيف استطعت يا فتح الله أن تنفذ إلي مستقبل عائلتك البائس ذات الماضي الجميل؟ كيف علمت أن الأحوال ستتبدل وتتنتهي حواديت اللمة لتمسي طيفاً يتلألأ

علي أفخاذ امرأة لعوب؟ ما هذا الشقاء الذي تلقي به كلماتك على النفوس؟ أين أنت يا صالح؟ ظللت تحترق كي تضئ للآخرين دون أن يشعر بك إنسان، تبني، تزرع وأنت لا تعلم أن الزناة هم من يرثون الأرض والزرع، وأنت يا فتح الله هل هانت عليك الأرض والدنيا كي توصي في كتابك بكل هذا الخير للبغاة والقوادين؟ عجيب هذا الكتاب المخيف يقرأ كل الواقع ويسخر في ذات الوقت منه، ليتك ما كتبته؟ ليتك تركت الدنيا لقانون الغاب بلا ناموس؟ لأن الطيبين أمامي وخلفي يرثون الخزي والعار، وأبناء الحرام يطاردون أبناء الحواديت، وهم يطارد خيال كماء يطارد ملح فالماء يضحك منتشياً بالنصر بأن أذاب الملح والملح يضحك في أعماق الماء لأنه أزال عذوبته، أوافق يا حسن فلابد من تغيير هذا الكتاب، حتى يرث الأرض الطيبة أبناء صالح وحدهم، ربي يعلم أن ما بي طمع في ظل زائل، ومستعد بأن ألقي بجثتي في كفة هذا الميزان كي يستقيم..

يستمع حسن إلي كلام أخيه والابتسامة لا تفارق وجهه، تلك سعادة الإنسان حين يجد لفكرته نصيراً، عرض عليه الكتاب الملفق كي يطابق بينهما، بصعوبه استطاع التميز، فقد استطاع المهرة أن يكتبوا بنفس الخط علي أوراق بنفس الخامة والعمر، تعجب في خاطره من

الدقة؛ لكنه تساءل: هل تزيف الكتاب يكفي؟ وخصوصاً أن الخصوم لم يعترفوا به أصلاً؛ ناهيك عن نسلهم الذي لا يعرف فتح الله ولن يقر له رأياً، وسيطالبون بحقوقهم من خلال الأوراق وحجج الأطيان، فطمئنه بأن ما حدث في الكتاب حدث في الأوراق، فهو يعلم أن المحاكم لا تقرأ الكتب، وهو نسخة وحيدة وتحت السيطرة؛ من يعترف به يأخذ ريع أرضه، وعند اللزوم يختفي الكتاب وتخرج الأوراق التي تثبت أن الجد قد باع كل الأملاك لصالح قبل موته بأكثر من عام وحتي لو طعنوا عليها: كل شئ معمول حسابه متخافش.. فنظر إليه يبتلع ريقه قائلاً: أنا كده مش خايف إلا منك.. فضحك على اعتبارها مزحه ولكنه لم يقاسمه الضحك لأنه يعنيها حقاً، تدخل روحية فيغيرا الموضوع وكأنهما إعتادا على ذلك، تعاتبهما علي عدم جلوسهما معها منذ وقت طويل، فيتعللان بالانشغال فتحذرهما من التسويف المضيع فقد يأتي وقت الفراغ وهي ليست معهما، فيدعو حسين لها بالبركة في العمر، فتبدي فرحتها علي اهتمامهما بالجلوس والحوار معاً أوقات طويلة ثم تنطلق نحو أعمال البيت التي لم تنته إلا لتبدأ..

(18)

__المذكرات__

تدور رحى الانشغال تدق عظام الوقت بقسوة، تبعثر الألفة بالتسويف المخيف، كلما سأل أحدهم الآخر عن قلة زيارته طرح أسباب الانشغال ومضى، وتعاقب الليل والنهار لا ينتظر ولا يرحم رحماً ولا ظهراً؛ فها هي ثريا ينحني عودها ويقل بصرها فصارت تصلي جالسة، وها هي روحية انطفأت شعلة نشاطها وقل عطاؤها البدني وإن كان عطاء الروح عندها لا ينضب مهما تقدم بها السن بل يزيد ضوءاً وحكمة، وها هو سليم مازال يثق أن زوجته مثال للطهر والصلاح، لم يجرؤ أحد من العائلة أن يسأل عن سبب بتر إبهامها، يخاف الجميع على قلبه أكثر مما يخاف هو عليه، وها هو صابر غارق بين كتبه يقرأ وينسي، لم يسلبه الزمن إلا بعض شعيرات من مقدمة رأسه، جعلته أقرب الناس شبهاً بأبيه، وها هو حسن تزوج مرتين ولم يوفق فيهما فقد صار عصبياً جداً، يدخن بشراهة، وكلما التقيت به هدأ قليلاً كشق ضائع وجد شقه الآخر، ولكن كلما ذكرته بحادثة تغيير الكتاب والأوراق تعود ثورته كبحر هائج؛ وكأنه يريد أن ينسى هذا

الأمر كله؛ أصول الشجرة التي كنا نأمل في جمعها قد تفتتت بعدما عصفت بها أنواء الصراعات، وتكومت على أطلالها كتل صخرية بلا مشاعر تنذر بوجود بركان أسفلها ينتظر ضعف السطح كي يثور؛ كون صابر وسليم جبهة واحدة برغم اختلاف النساء وعراكهما المستمر فيما مضى إلا أنهما صارا معاً كرباط واحد ضد جبهتي أنا وحسن، وروحية تقف على مسافة واحدة من الجميع متعللة أنها أم للكل، وثريا كذلك تتعلل أنها طلقت الدنيا وصارت روحاً هائمة في ملكوت السماء، تقضي في الجسد فترة حتماً ستنقضي وتغادر؛ ولكنها برغم ذلك تتمسك بعقدتها التي عقدتها كما قال لها فتح الله في ذلك الحلم الذي تراه يقينا؛ فتحاول بكل جهد أن تؤجل أي نقاش في حقوق قدر المستطاع، حتى أنها عرضت على حسن أن تتنازل له طائعة عن نصيبها من الأرض نظير الرأفة بأهله وبذل العطاء لهم فاستجاب لها قائلاً: ما تأمري به واجب التنفيذ يا عمة، ورفض أن يسلبها شبراً من ارضها، الغريب أن الكل يسترضيها ويتودد لها برغم علمهم أنها لا تملك إلا الدعاء الذي تجود به سيلاً يعم الجميع..

قضيت سنواتي العديدة في أسوان منذ تخرجي أعمل في البناء والتشييد، وأكتب ولا أنشر شيئاً؛ فقط أخزن أحزاني في أطنان الأوراق

التي تنوء بحملها أدراج مكتبتي الصغيرة، ولا أدري كيف يتحملها صدري؟ حاولت تجميع حكايات الجد وإعادة صياغتها؛ ففي كل زيارة للترسانية أجلس تحت أقدام عمتي لأسمع منها شيئاً، فقد صارت المصدر الوحيد لتلك الحكايات والغريب أنها تنسي كل شئ إلا حكايات فتح الله، أما روحية فقد نسيتها، وسليم وصابر لم يعد بيني وبينهما خيط من ود بعدما اختار كل منا طريقه سألت نفسي كثيراً: هل كانا يقصان ما يحفظان من حواديت علي ولديهما؟

حمدي و فتحي، ما شعرت يوما أنهما ينتميان لآل فتح الله حدة في الطباع وتناثر في الملامح؛ أو هكذا يبدوان لي لكرهي الشديد للبطون التي ألقت بهما علينا، حمدي أكثر هدوءاً ولكنه أشد خبثاً، لا يأخذ من صابر إلا حالته حين يهذي، غير أنه لا يهتم بقراءة الكتب كأبيه، أما فتحي طويل القامة؛ هكذا تسميه عمتي ثريا وتقول أنه اكثرنا شبهاً بفتح الله، وما أرى ذلك مطلقاً فهو قد مزج رعونة أبيه سليم بقسوة أمه سحر ليصنع للعائلة شاباً مثل شجره السنط ليس بها ثمار إلا الشوك، الذي يتساقط منها ليكدر صفو ظلها البسيط، ولما تبينت أن هذين الولدين قد أخذا من مذكراتي أكثر مما ينبغي قررت ألا أكتب عنهما بعد اليوم حرفاً إضافياً... خرجت في نزهة بين أحضان تلك

المدينة التي تحمل قسوة وليناً؛ ففي صيفها نار وفي شتاءها جنة قوامها النيل والنخيل، وقفت أمام نقوش المعبد متأملاً وكأنها رسائل قد أرسلها الأجداد؛ هكذا رأيتها دون أن أفهم منها شيئاً، هل لأنها نقشت بلغة لا أعلمها؟ أم أن تلك هي طبيعة رسائل الأجداد غير مفهومة، أتراني قد فهمت رسائل فتح الله في كتابه كي أفهم ما هو أبعد، وقفت أمام التمثال الهائل عند بوابة المعبد متذكراً قول أحد العمال لي أن الفرعون كان بهذا الطول وتلك الضخامة ولكن الأجيال تنقرض، تذكرت كيف ضحكت يومها من جهله، وقلت له متهكماً: إذن بعد سبعة آلاف عام أخري ستصير النملة بألف رجل، ولكنني حين تأملت التمثال الآن علمت أن الرجل لم يكن جاهلاً؛ يبدو أنني الجاهل الوحيد في هذا الكون، كيف لا أقارن بين عقولهم وعقولنا من خلال ما شيدوه بدون أن يحصلوا علي دراسات وجامعات، وما أشيده أنا صاحب الدكتوراة في الهندسة، ألم تقل ثريا أن فتح الله كان عملاقاً، وقد أنجب سليم وهو علي مشارف الستين، يبدو أن الماضي دوماً أشد

جمالاً من الحاضر، يبدو أن الأجداد دوماً عندهم بصيرة حادة وعقل صائب ونظرة ثاقبة، هل يعود ذلك إلى أن ميراث الروح يقل مع تقدم

الزمن؟ هل الروح التي فاز بها آدم ليست كتلك التي بداخلي؟ ماذا أقول؟ هل عاودني الهذيان مرة أخري؟ ولما لا وهو قدر مكتوب على آل فتح الله، الهذيان! عندما تذكرته تذكرت معه آخر زيارة لي في الترسانية حين اشتد صراخ صابر حتي أيقظ الجميع؛ وتحركت ثريا صوب بيته بأقدام قلقة موثوقة بالشيخوخة وعادت حزينة من قول آمال أن هذه ليست هي المرة الأولى التي يهذي فيها، وكذلك هذيان حسن وهو نائم؛ الذي زاد بعد واقعة تغيير الكتاب، كان يقلق نومي حتي أنني ندمت يوماً أنني تركت خلوه السطح وهبطت لأسكن معه، تذكرت تلك الليلة المرعبة التي استيقظ باكياً بعد نوبة هذيان شديدة وقام ينادي علي رجاله الثلاثة اللذين أحضرهم ليحرسوه بعد واقعة الكتاب، خرج إليهم دون أن يلتفت نحو سريري وقفت أرقبهم عن بعد من الشرفة المطلة على الحديقة، عاد بهم إلي جوف البيت وصعد بهم السطح حتي خلوتي القديمة وقفزوا من شرفتها علي سطح سليم ومنه إلي سطح النجار البدين، وما هي إلا دقائق وخرجوا به من باب بيته قاصدين الزريبة المقامة بالحديقة فعادوا أمام ناظري مرة أخرى، فهبطت إليهم مسرعاً والخوف ينال من أقدامي، رأيته وهو يهدده ويأمره بالتنازل عن بيته ويطالبه بمغادرة القرية كلها، ويغري عينيه بالأموال الكثيرة، ومع صوت رفضه علت رائحة الشواء من لحمه إثر

إطفاء السجائر فيه فصرخ وصرخت فوافق ووضع بصمة إبهامه على الأوراق، فتنبه حسن لوحودي فقال: أي خدمه يا باشمهندس.. أسرعت عائداً إلي خلوتي الأولى دون أن أنبس بحرف، أغلقت الباب خلفي بإحكام زاد خوفي من حسن ذلك الذي يعذب بالنار، فيحرق الأجساد البشرية بلا رحمة، سخرت من نفسي حين أشفقت علي هذا النجار المسكين، فهمت ساعتها معني جناح البعوضة، وكيف هانت الدنيا علي الله، شعرت أنني أريد أن أتقيئ فرائحة الشواء تزكم أنفي..

أفرغت ما في جوفي وغسلت رأسي بماء بارد وألقيت بنفسي على حصيرة من قش وحيدة باقية في منتصف الغرفة، تذكرت يوم التقيت به داخل السيارة وكيف روادتني نفسي أن أنتزع المطرقة الكبيرة من يده وأهوي بها علي رأسه، قارنت بين الساعتين، وظلت نفسي تتأرجح بين الضحك والبكاء والنوم واليقظة حتي أشرقت الشمس..

(19)

<u>صابر أبو الفتوح</u>

العمر أوشك على الانتهاء بين السفر والعودة، وحدة هناك وأحقاد هنا، حتى أنه ماعاد يعلم أين يكون مقام الحال وأين مقام الترحال، أنهكه التنقل بين غرف الحياة وكأنما يدور على شقائها لا يترك منه منهلاً، تمنى أن لو ترك الدنيا قبل أن يكون الصراع بينه وبين أولاد عمه قدراً مكتوباً، يتحرك منذ نشأته كريشة في مهب الريح، حتى أنه نسى الاختيار؛ فقط ينتظر كي يختار غيره، تذكر يوم اختياره الأول، آمال! هل حقاً كانت اختياره؟ فماذا لو لم تدخل الحانوت، لتسأل عن رسائل الأحزان؟ هل كان سيقطع الأرض بحثاً عنها؟ ليخطفها على حصان أبيض، يبدو أنها لم تكن اختياره أيضاً، ضحك في خاطره وحاول بكل قوة أن يجاهد هذيانه قائلاً: لابد من العودة بهما إلي شقة القاهرة وإغلاق البيت هنا أو حتى بيعه، هروبي من أبي الفتوح قد طال؛ وما أظنه سيطاردني مرة أخرى، ولو طاردني أرحم عليّ من الوحدة في الحانوت والصراع الوشيك هنا، ماذا كان يفعل غير أنه ينتقد أفعالي ويوبخني؟

هافتح الشقه تاتي يابا.. وهجيب حمدي وأجي لك.. حمدي بقى راجل وأنا بقيت عجوز تخيل.. العيشة هنا وحشة أوي.. ولاد عمي صالح بقوا مجرمين.. تخيل أنا بقيت بخاف منهم..هههههه سونسون فاكره بقي بيخوفني...

ظل يهذي تحت ستار الليل يخاطب الستائر التي تحركها الرياح وآمال بجواره تغط في نوم معتاد؛ ما عاد يخيفها هذيانه قام من فراشه صوب البهو يدخن سجائره وينتظر عودة ولده حمدي الذي أصبح دائم السهر مع أصحابه، منذ تخرجه يجلس بلا عمل ينام ويسهر؛ يذكره بعمه سليم، إلا أنه قليل الكلام؛ حتى بدا للجميع وكأنه لغز، يكره مجالسة كل آل فتح الله حتى أبيه، يعاملهم من وراء حائط من زجاج، يبدو أن قلبه مشحون بالحقد بدون مبرر مفهوم، حتى حكايات آمال له عن جده الكبير ولمته وكتابه لم يهتم بها؛ يكتفي من الدنيا بأمه فقط، وكأنها أنجبته وحدها، لا يرى للآخرين عليه أى حقوق، كل كلامها مقدس إلا فيما يخص فتح الله وأولاده، يسمعه منها فقط ولكنه يتمنى أن لو تحولت بحديثها إلى موضوع آخر، حكاياتها عن آلام الفقر التي عانت منها طوال فترة طفولتها وصباها؛ وكيف أنها تمنت يوماً أن تصير قطة، كي يعطف عليها الناس

بالطعام دون أن يطمعوا في لحمها، وكيف مات أبوها على إثر جرعة من مخدر رخيص، وتبعته أمها سريعاً حزناً وقلة حيلة، وكيف تولى شيخ الكتاب رعايتها وتعليمها مجاناً حتي مات هو الآخر تاركاً لها حصيلة من القراءة والكتابة كفيلة أن تقويها على مواجهة الحياة؛ دائما كانت تبكي كلما جاء ذكر الشيخ الذي كانت تلقبه بسيدنا، ودائما كان يبكي حمدي لنفس السبب؛ إنه الشخص الوحيد الذي أحبه حمدي بالرغم من أنه قادم من الماضي، حتي أن آمال نفسها كانت تتعجب كيف تبهره شخصية سيدنا؟ ولا تبهره شخصية فتح الله صاحب العزوة والحواديت والكتاب المخيف والعائلة التي تضرب بجذورها في الأرض، كما تحزن لجلوسه بلا عمل في انتظار الوهم الذي أسماه حلمه الوحيد وهو إعادة الأرض وبيعها والهجرة بها وكأنما ينسى في كل مرة يراوده فيها حلمه أن أبوه مازال علي قيد الحياة، يرفض الزراعة وبيع الكتب، يكره القراءة بالرغم من شغف أبويه بها؛ يرى أنها أضاعت عقل أبوه، وعبثت باختيار أمه فما يراها اختارت هذا الرجل إلا لأنه يقاسمها حب القراءة، فهو دوماً يراه لا يستحقها ويراها كانت تستحق من هو أفضل من ذلك الرجل خفيف العقل كثير الهذيان، ويرى نفسه نتاج زواج القديسة بالمجنون، تائه في دنيا فتح الله لا يزرع ولا يبني فيكون صالحاً ويموت في هدوء، ولا

يقرأ وينام فيهذي كأبيه ولا حتى يسكر وينام فينسى ويستريح كما يفعل سليم، يظنه الجميع كثير النوم قليل الانتباه ولكن الحقيقة أن حواسه في يقظة دائمة، يتفق في غايته مع فتحي ولكنه يؤثر الهدوء والتركيز حتى تحين الفرصة.. دلف من الباب بهدوء كي لا يزعج النائمين، وجده جالساً على أريكته تحت ستار الظلام؛ ما انتبه لوجوده إلا من خلال حلقات الدخان الكثيفة المنبعثة من فمه، فألقى عليه تحية المساء، وحاول أن يتجه نحو حجرته فقال له: تعالي يا حمدي عاوز أتكلم معاك شوية.. فقال: عارف يا بابا هتقولي اتأخرت ليه؟ وهقولك أنا مبقتش صغير وحوار كل يوم.. فقال: لا خالص أنا عاوزك في حاجة تانية..

أضاء بعضاً من نور البهو جلس بجواره مضطراً بنظر زائغ في كل اتجاه، طرح عليه فكرة الانتقال للعيش الدائم في شقة القاهرة، ظن أن الأمر سيلقى ترحيباً واسعاً حتى أنه طالبه أن يقنع أمه بذلك، سمع منه حتىا من حديثه ثما فيه كطلقة مكبوتة رافضاً كل ماقيل، ساد الصمت طويلاً، حتى قام كل منهما صوب فراشه يحمل من الأفكار والظنون ما تنوء به الرأس، صابر يشعر بعدم امتلاكه لزمام ولده الوحيد، وهو يرفض أن يكون دمية تعبث بها أهواء إنسان ضعيف

حتى لو كان أبوه، يختلي كل منهما بفراشه يبث له همومه فيؤول حمدي إلى نوم مضطرب، ويؤول صابر إلى الهذيان المعتاد حتى ينقضي الليل ببزوغ فجر جديد..

(20)

<u>سليم فتح الله</u>

تمدد بجانبها، يتطلع في وجهها الذي مازال جميلاً وكأن الزمن قد مر بجواره، إتكأ برأسه على راحة يده وظل يمتع نفسه بالنظر فيه ملياً، وجه صبوح هادئ ينطلق من بين هالة منثورة من شعر أسود فاحم وكأنه الشمس تتأهب كي تنير الدنيا، هدوء نومها يذكره بنفسه حين كان طفلا، وينام علي فخذ روحية بعد حكاية من حكاياتها فكر أن يعبث بأنامله في شعرها ولكنه خشي علي هذه البراءة من الهلع، يطرق باب الحجرة، يفتحه علي الفور كي لا يزعجها استمرار الطرق..

- فيه إيه يا فتحي الدنيا خربت..

- إنت نايم في العسل يا بابا ومتعرفش إن عمي صابر سافر مصر ومش ناوي يرجع تاني..

- هو حر أنا مالي..

- هو حر إزاي؟ طب والأرض خلاص هنسيبها للعيال دول أنا مستحمل بالعافيه علي فكرة..

- إعمل اللي عاوزه وسيبني أنام..

- ماانت طول الوقت نايم يا بابا إيه اللى إتغير ماشي سلام..

عاد إلي حجرته بلا اكتراث لما قيل فقد إعتاد علي مثل هذا التطاول من ولده منذ أن شبّ عن الطوق، أغلق الباب بهدوء حذر واستدار ليجدها جالسة على الفراش بعينين حمراوتين وشعر منثور وكأنها الغول حين يتأهب لمهاجمة الفريسة، ألقت على مسامعه كلمات التوبيخ والاتهام بالضعف وقلة الحيلة؛ مدافعة عن موقف ولدها على طول الخط، تتصاعد نبرات صوتها تدريجياً حتى أمست كصوت آلي بغيض لا تتحمله الآذان، حاول أن يسترضيها بلا جدوي، حتى أنهت الحوار بأنها ستغادر البيت بولدها من شروق الشمس، ولكنه قال بصوت حزين: أنا اللي هسيب لك البيت بكره بس سيبيني انام دلوقت فقالت: أنت وإبن أخوك أجبن من بعض هتهربوا وتسيبوا النسوان تجيب لكم حقوقكم..

سقط في بئر الصمت السحيق، ألقى الوسائد على أذنه كي لا يسمع المزيد، ندم في داخله ندماً شديداً أنه كان يراها جميلة منذ دقائق؛ أحاديث النفس تتأرجح بين أضلاعه: كيف أحال الغضب وجه الطفل إلي وجه وحش لا يرحم؟ هل تحبه كما يحبها؟ تذكر الحلم الذي عربد برأسه وهو ذاهب للزواج منها، ثم عاد سريعاً إلي ذكريات يوم لقائهما الأول وكيف كانت تتعثر في حيائها وهي تهبط درج الرصيف، غاب في تلك اللحظة متناسياً كل ما حدث بعدها كي يسقط في نوم عميق...

(21)

<u>ثريا فتح الله</u>

قامت من نومها فزعة كيف تسرب هذا الحلم المخيف إلى ليلها الهادئ وقلبها المغسول بالتسبيح والاستغفار، هبطت من الفراش تترنح أضاءت المصباح فألقي علي الغرفة نوراً سقيماً يتناسب مع حجمه الصغير فهي ما اعتادت على النور الباذخ، توضأت وعادت لمسبحتها وأورادها، وكلما تذكرت الحلم توقفت أناملها علي حبات المسبحة فتستغفر وتعود، رأت ذهباً كثيراً يتلألأ أمام عينيها وكلما اقتربت منه تحرك للوراء بمقدار حركتها فكلما أسرعت أسرع، حتى استقر أمام روحية وهي جالسة أمام الفرن الطيني في البيت القديم تنظر إليها متعجبة من عدم اكتراثها بتل الذهب الذي استقر بين يديها، سألتها أن تشاركها فيه، فهو خارج من حجرتها، فنظرت إليها والدموع تكسو خديها قائلة: خديه أنا مش محتاجاه خالص.. فهمت تغمس كفيها كي تجمعه في حجرها فتجد أن السبائك قد تحولت إلي رءوس تشبه رأس فتح الله وأبو الفتوح ثم تشخب دماً وتتضاءل حتي تصير قشاً وحطباً فتأخذه روحية وهي ما زالت تبكي وتدسه في

الآتون المشتعل، فتصرخ فيها أن تتوقف وتظل تصرخ حتى يتطاير من فوهه الفرن رماداً تبعثره الرياح، توقفت عن التسبيح تتحسس وجهها المتورم تسائل نفسها بصوت هامس: ما هذا يا فتح الله هل دنا أوان حل العقدة الثالثة؟.. تتوق نفسها شوقاً إلي يوسف؛ الولد الغائب في صحراء الغربة، تتسائل: كيف لم يفكر يوماً أن يحضر ليراني؟ يبدو أن الأمر صعب عليه.. ربنا يوفقه ويهديه، طالما هو سعيد خلاص.. ظلت تدعو بالخير والبركة للجميع حتى عاودها النوم دون أن تطفئ النور؛ هل نسيت؟ أم خافت من استقبال الظلام...

******

يدخل عليها وعليه آثار السفر، والجلباب الكشمير الأسود ملوث بالطين، شعره مبعثر وكأن الطاقية والشال قد سقطا من علي رأسه دون أن يشعر، أقدامه الحافية مغلفة بطين لازب يختلط ببقايا أعشاب جافة، فقالت: مالك يابا؟ انت كنت بتروي الأرض ولا إيه؟.. فقال: رحت أرويها لقيتها مرويه بالدم؛ ثم صرخ وكأنه يعاتبها، ثم أخرج من جيبه الكتاب وقد تمزقت صفحاته فقالت: هو دا الكتاب اللي كلمتك عنه.. فقال: أهو اتقطع وبقي ميت حته ومقدرش يحرس نفسه ولا انتم حرستوه.. ثم بكى حتى قامت واحتضنته فهذه أول مرة تراه

يبكي وأول مرة تشعر أن فتح الله العملاق فى أحضانها نحيف هزيل حتى أنها خافت أن تحكم عليه ذراعيها فتهشم أضلاعه، قامت مفزوعة للمرة الثانية تنظر في كفيها لتجد آثار التراب عليهما ورائحة الطين والأعشاب المهروسة تملأ الحجرة؛ فقررت ألا تنام ثانية وتظل تصلي حتي يحل الفجر بضوءه ليبدد هذه الليلة الثقيلة...

(22)

<u>فتحي سليم</u>

بعدما هدأ عنه الغضب، جلس أمام باب البيت نادماً ، يخط في تراب الأرض بعود جاف يرسم أشكالاً لا معنى لها، يحدث نفسه أنه ما كان يود أن يتصاعد الأمر بينهما إلى هذا الحد، حاول إيقاف أمه عن إصرارها بألا يجمعها بأبيه ظل واحد، كما حاول إثناء أبيه عن عزمه بلا جدوى، غادر الأب بلا وجهه يجر حقيبة ثقيلة يبدو أن الأمر سيطول، والأم دائمة الشكوى من الحظ والزمن، وهو فاقد للإرادة مكتوف الأيدي، يشعر وكأنه مشرد بلا وطن، يعيش وأهله على ما ينعم عليهم به هذا الحسن من أموال إرضاءاً لعمته ثريا، يأخذ من حقه كالمتسول، ألقى بصره عالياً صوب سور البيت الشرقي وقال: هنا يجلس في برجه العاجي سلطان يدير شأن رعاياه، آه منك يا فتح الله الخبيث، أطعمت الصغير للكبير، ولن يحاسبك مخلوق؛ كيف سيحاسبك من يخافك؟..

رن هاتفه رنات متقطعة برسالة قصيرة (قابلني بعد ساعة عند مدخل القرية الغربي) قام من فوره اغتسل وبدل ملابسه، سألته سحر عن

وجهته فهي ما اعتادت منه الخروج صباحاً فأجاب كذباً: هشم هوا.. ثم تركها وقفز مثل كنغر بري، يسير بحركة نشيطة وكأنما كان ينتظر هذه الرسالة أو يتوقعها، وصل إلي البوابة الغربية للقرية التي تفضي إلي الخلاء المهجور الواقع بينها وبين عزبة الوردانية؛ تذكر حكايات أبيه السخيفة عنها المنقولة من حكايات الجد الأكثر سخفاً؛ أن هذه الأرض كانت فيما مضى حديقة خصبة التربة، وكان صاحبها رجلاً طيباً قنوعاً فرزقه الله رزقاً واسعاً حتي أن ثمار حديقته كانت تكفي أهل القريتين هدايا وصدقات، وما يفيض يبيعه إلي تجار البنادر المجاورة ليكفي معيشته وزيادة ولما اختلف ورثته من بعده أهملت فصارت إلي ما صارت إليه، ظل يتسلي بحكايات يراها خرافة وداخله يضحك ضحكات مكبوتة ويقول: حاولوا إقناعي أن كل هذا الفضاء الرحب له أصحاب ولكنهم اختلفوا فخاف كل منهم علي حياته من الآخر فتركوها جميعاً حتى آلت صحراء قاحلة، آه لو كانت هذه الأرض ملكي ما تركتها حتى وإن نازعني فيها إبليس نفسه، أو لربما بعتها له بسعر معقول؛ فهي أنسب مكان علي الأرض لإقامته، قفر خرب بين قريتين فقيرتين يتقاسمان الجوع بالداخل و إذا فروا منه يتقاسمون الخوف عليها..

*****

عند أول الطريق وجده منتظراً، أخذه من يده وغاب به في الفراغ المتصحر، فقال له متعجباً: ليه مجيتش نتكلم في البيت أو علي القهوة، أو قلت اللي إنت عاوزه على النت.. فقال: الكلام دا بيني وبينك ومينفعش غير هنا.. فقال ساخراً: يعني مينفعش غير وسط العفاريت.. فلم يبادله السخرية وتركه حتي سكت واطمأن إلى أنه مستعد لتلقي أي أمر، هذا ما يرمي إليه حمدي من البداية، أن يسيطر عليه مستغلاً الهدف المشترك -الأرض الضائعة- فيكون عوناً له في إعادتها بأي ثمن، وحبذا لو أزاح معها أولاد روحية من علي وجه الأرض، وبالفعل نجحت مساعيه وتأكد من ذلك حين رأي أن كل أسئلة فتحي تدور حول الكيفية وليس حول الفكرة، حتى أمره صراحة أن يسلمه عقله وإرادته..

ينفذ أوامره دون نقاش وسيتم المراد، كما أقنعه أن الخطة يجب أن تكون سراً بينهما وسيتم التحرك بأسرع مما يتخيل، أخبره بدوره فقط دون معرفة الأمر كله وكأنه يرسم سيناريوهات هذا الأمر قبل أن يوجد أصلاً..

(22)

<u>ثريا فتح الله</u>

جلست علي حافة سريرها تنتظره بكل شجاعة، جسدها طاهر بالوضوء، ثيابها طاهرة بالطيب الحجازي، روحها تعلو مع كل تسبيحة وتحط على أطراف منكبها كطائر أبيض شفاف، كلما حاول الشيطان إخافتها من اللقاء طردته بالاستعاذة وطلب المدد، قرأت الأوراد مرتين، أحكمت خمارها واستقبلت القبلة، فيغير الشيطان خطته بإلقاء صورة يوسف الغائب أمامها، فتشيح بوجهها بعيداً، كي لا تجذبها رغبتها في رؤيته إلى التشبث بأذيال الحياة، عاودت طلب المدد، وناشدت فتح الله أن يسامحها لأن العقدة الثالثة على وشك أن تنحل، فرغبتها في الرحيل تفوق أسقام بدنها، روحها تأبى أن تستمر في هذا البدن الذي تآكل، كما تتوق إلى لقاء الأحبة الذي طال انتظاره، تحركت جالسة إلى طرف السرير الآخر، طرحت رأسها في زاوية إلتقاء الحائط بالحائط، ظلت تكرر التسبيح حتى توقف لسانها إلى الأبد..

*****

مع طلوع النهار يجتمع الرجال في مندرة صالح، وتجتمع النساء في صحن دارها، كما تجتمع أسراب اليمام البري علي شباك غرفتها تتابع أعمال الغسل والتكفين، كل القلوب المختلفة تتحد في هذا اليوم؛ آن لثريا أن تعلو، يفيض الدمع بمقدار زوال الخير، بقعة الظل الأخيرة أزالتها حرارة صيف الرحيل، رائحة الفراق تزكم الأنوف والجو خريفي يتأرجح بين الصيف والشتاء إلا أنه يجتمع علي سقوط الأوراق وذبول الزهور اليانعات، أول مرة منذ أمد بعيد تطأ أقدام حمدي وفتحي بساط المندرة الصالحية برغم ذبول ملامحهما بحزن عميق إلا أن عيونهما تدور رغما عنهما في متاع المندرة الفاخر، مرت المراسم سريعاً وكأن الجسد الخفيف يسبق حامليه إلي مثواه، ثم أغلقت الدار على ظلمتها حتى حل على الجدران يأس مقيت في أن تسمع الأوراد والتسابيح بعد اليوم، طارت أسراب اليمام وذابت في الأفق، وتوجه كل إنسان إلى بيته وملهاه...

(23)

حسن صالح

خرج مسرعاً يود أن لو يطير، يستقل سيارة خاصة كي تنقله إلى المطار فالوقت ليس في صالحه ولن يسعفه القطار، منذ أن استقبل تلك المكالمة الغريبة وهو عاجز تماماً عن التفكير، كيف لأخيه أن يقع في هذا الشرك بكل هذه البساطة؛ وهو صاحب الخبرة والسن والتعليم، رأسه تكاد أن تتحطم تحت مطرقة الأفكار المتلاحقة، يود أن يجد من يبث إليه همومه فينصحه ويرشده إلى التصرف السليم؛ هذه أول مرة يشعر فيها بالعجز برغم قوته وماله، أول مرة يشعر فيها أنه محتاج لمشورة (ليتك حي يا أبي)، أخفي الأمر عن الجميع؛ فلو علمته روحية لماتت من فورها، ولم يستطع أن يأخذ معه أحد رجاله الثلاثة، كي لا يشيع الأمر في القرية وتصير فضيحة، لماذا يا حسين؟ لقد كنت عقلي وضميري، هل حقاً تفعلها؟ (حسين أغوى فتاة حتى حملت منه، واختطفه أهلها) هكذا قالها أحد عماله وأغلق الهاتف حتي أنه لم يعرف له إسماً، هل سيقطع كل هذا الطريق لمجرد مكالمة من مجهول تناشده بأن يدرك أخاه من بين براثن ذئاب

جائعة لا ترحم، هاتفه المغلق زاد من قلقه وحيرته.. ألف سؤال يبعثر رأسه.. لماذا لم يتصل هذا الرجل بالبوليس وهم بالطبع أقرب لإنقاده؟ وماذا يجب أن يفعل؟ لم يجد أي اجابه شافية لأي سؤال؛ سوي أنه اندفع باحثاً عن سيارة في الموقف لا يعرف صاحبها ولا يعرفه؛ كي تناسب سرية الأمر، دارت السيارة حول زمام القرية كي تخرج من الحدود الغربية حيث الأرض البور كي تقطعها بطولها إلى طريق الوردانية المرصوف حتي تكون بمحاذاة خط السكة الحديد ومنه إلى الطريق الزراعي؛ هكذا رسم الطريق في عقله ولم يرد أن يسأل السائق عن صحة هذا التصور أو لماذا أختار هذا الطريق المقطوع؛ كى لا يفتح باباً للحوار بينهما قد ينتهى بالتعارف، فهو دائما ما يمقت فضول السائقين فطرح رأسه المثقلة بالهموم إلى جانب السيارة وحاول أن يغمض عينيه عل الحلول تطل عليه من عالم الأحلام..

*****

الضجيج يعلو حوله يقطع أوصال السكون، وكأن القيامة قد حان وقتها، أصوت غليطه تنطلق كاصطكاك المعادن، يفتح باب السيارة بقوة ويجذب من طوق جلبابه ليلقى به على الأرض لا يعي ما يحدث ولا يتمالكه أي شعور آخر سوى الخوف، لم يبتعد كثيراً عن حدود

الترسانية هو مازال في منعطف جانبي من الأرض المهجورة، التي اختلفوا في تسميتها فقد أسماها أبوه أرض الرجل الصالح، وأسماها الناس أرض العقارب، وعلى كل حال هي الأرض الواقعة بين أعمامه في الترسانية وأخواله في الوردانية فكيف يهان هكذا بينهما، يرفع عينيه مجاهداً الظلام كيما يتفحص وجوه الناس؛ فزاد الظلام ظلاماً حين تلقى من أحدهم ضربه على رأسه أفقدته الوعي.. أفاق ليجد نفسه موثوقاً بالحبال في كهف لم يحدد موقعه وبجواره أخوه، فبرغم سكون المكان ووحشته و ذل القيد و جهله بكل ما يدور إلا أن نفسه قد هدأت وارتاحت؛ ولم لا فهذا هو حسين بجواره بخير، فسأله هامساً عله يجد لما في رأسه إجابات شافيه حتى وإن قتل بعدها، فعلم أن المكالمة كانت كذبة وخطة لاستدراجهما إلى هذا المكان ففرح برغم سوء العاقبة، ثم أعلمه أنه قد تم اختطافه من محطة القطار وهو في طريقه للزيارة الشهرية المعتادة.. وقد كان الأمر يسيراً وفي وضح النهار لأن فتحي هو من كان بانتظاره على الرصيف وتلقى منه الحقيبة وأخبره أن أخاه يريده بأمر هام في أرض الرجل الصالح، فاطمأن له حين سمعه يسمي الأرض بالاسم الذي أطلقه عليها أبوه، سار معه مطمئناً حتي سلمه للخاطفين واختفى؛ فهم حسن الخطة كلها وبدت كتباشير الصباح بمجرد سماع اسم فتحي من أخيه...

(24)

<u>**روحية**</u>

عقلها المستطار يأبى السكون، غاب حسن ليلتين بلا مبرر معلوم، وتأخر حسين عن موعد زيارته الشهرية والهواتف مغلقه، قلبها يأمل أن يكون المانع خيراً، وفي رحلة عقلها للبحث عن الاطمئنان تذكرت (خلف)، ذلك الشيخ الذى كان مخزن أسرار أبي الفتوح ومن بعده صالح، تلك العتبة الطاهرة التى يخلع كل آل فتح الله عليها همومهم وينتظرون منها الرأي والنصيحة، باب الاعتراف بالأخطاء ومنطقة رؤية النفس من منظور شفاف، مرآة فتح الله وأولاده من بعده؛ فقد كان يعتبره واحداً منهم، ولكن اليأس ما لبث أن زحف تلقاء فكرتها حينما تذكرت سن الرجل الذي يفوق الثمانين؛ لابد أن تلك الذاكرة القديمة قد تآكلت ولم تعد تذكر شيئاً عن صالح، فكيف ستعلم أين الحسن والحسين؟ فبرغم تعلق نفسها بين اليأس والأمل إلا أنها قامت ترتدي جلبابها وطرحتها وتتجه صوب بيته كغريق يتعلق بقشة، طرقت بابه وانتظرت كثيراً بعدما أكد أنه قادم كي يفتحه، فهو ما إعتاد أن يسأل من الطارق، لأنه لا يملك من الدنيا إلا نصائح الشيوخ ولا

يضن بها علي أى إنسان مهما كان؛ طالما أنه مستعد لانتظاره حتى يفتح الباب.. قد قال لها زوجها يوماً أن خلف كان أحد ضيوف حكايات فتح الله، صديق أبي الفتوح الوحيد، وقص لها كيف كان سريع الحركة نشيطاً ، لا يعيقه زيه الأزهري وهو يركض كي يلحق بالقطار، دائم اللوم لصديقه أبي الفتوح على حركته المتريثة، وكيف كان أبو الفتوح يتعلل بقوله: أنه يملك من القوة ما يؤهله أن يطير ولكنه يحترم هيبة الزى الأزهري، فُتح الباب علي وجه تعلوه التجاعيد تكسو خديه لحية بيضاء، ظهر مقوس أقرب للركوع، أصابتها الدهشة حين سمعته يقول بصوت مجهد: ادخلي يا روحية يا بنتي.. طرق الأمل رأس اليأس وحل مكانه، يبدو أن ذاكرة الرجل بخير؛ فقد تذكرها وهو لم يرها إلا مرات معدودة ومنذ سنوات بعيدة؛ فدخلت وجلست علي كليم من الكتان المجدول يغطي سطح سحارة خشبية عتيقة، وطئت بأقدامها الحِرام الصوف المفروش علي الأرضية الترابية، بعدما خلعت نعليها عند العتبة، بيته البسيط أعاد إلى ذاكرتها أيام جميلة، حيث الجدران الطينية والسقوف الخشبية، التى تكسب ساكنيها برداً لطيفاً في الصيف ودفئاً منعشاً في الشتاء..جلس الرجل يلقي سمعه نحوها ينتطرها أن تتكلم دون أن يطلب ذلك حفاظاً على آداب الضيافة، فقالت على الفور:

– ولاد صالح غايبين يا عم خلف..

–حسن وحسين..

–هو فيه غيرهم انت عارف إن لولاهم كان زماني فين..

–ربنا يحفظهم لك يا بنتي..

–تفتكر يكونوا فين..

– اصبري يا روحية دا إمتحان واللى هينجح هيفوز والغلطة بتنقص من الدرجات حتى لو كانت بسيطة، حد منهم قرأ لك الكتاب يا روحية..

– لأ؛ بسمع كلام منهم بسرعة كدة، وبعدين أنا مالي بالكتاب هو أنا من ولاد فتح الله..

–هو فيه حاجه في الكتاب بتقول إنه حكر على حد؟..

–أنا عارفه بقي، بس إيه علاقة الكتاب بغياب الولاد؟..

–لأن كل اللى ما يحفظش كتابه كويس بيغيب يا بنتي..

قالها وسكت وكأنه الحكيم الذي عرف الداء ولم يعرف الدواء؛ ساد الصمت طويلاً بالخارج ولكن الضجيج فى رأسها لا يصمت، تتناوب المطارق من كل جانب، ما أن ينزاح من خاطرها سؤال حتى يحل محله آخر، ما علاقة الكتاب بالغياب؟ وكيف علم خلف كل هذه الأحداث وهو لم يغادر خلوته منذ سنوات؟ زادها حديثه خوفاً على خوفها شعرت وكأنه يقرأ صفحات الوجوه ولما لا وقد إعتاد على جلوس أولاد فتح الله أمامه، يا ترى هل يعلم شيئاً عن واقعة تزوير الكتاب؟ قامت من أمامه واتجهت صوب الباب دون استئذان؛ فما استطاع أن يقدم لها إلا مزيداً من الخوف، تمنت أن تعود أيام ثريا، كانت إذا اشتد بها الكرب تذهب إليها كى تسألها الدعاء، بدأ ضوء النهار يسحب نفسه حثيثاً من السماء وكأنه يسير مع بطء خطوتها نحو البيت، لو اختبئت الشمس خلف هذه الأشجار؛ سيكون اليوم الثالث قد مر، دون أن تفعل شيئاً.. هل لو إتصلت بصابر أو سليم ستجد عندهما النجدة؟ أم هما من وراء هذه الأحداث؟ هل يمكن لدماء فتح الله في عروقهما أن تصير مياهاً باردة؟ لم تجد أمامها إلا أن تأمر الحراس الثلاثة أن يبحثوا عنهما مع طلوع الفجر، على أن تقضي ليلتها تصلي وتدعو الله بالسلامة للجميع، ثم قالت: يارب زي ما رزقتني بيهم احفظهم لي ..

(25)

يدفع البوابة رجال بقوة الثيران، يفر من أمامهم كل خائف على حياته، تشتت الرجال الثلاثة هاربين كالجرذان إقتفوا آثارهم حتى ألقوا سلاحهم وهواتفهم وخروا راكعين مقيدين بجوار الماشية.. قطعوا خطوط الهاتف والكهرباء حتى أمست البيوت ظلاماً دامساً.. يتحركون بسرعة ودراية بالمكان وكأنه بيتهم، دخلوا المندرة الصالحية على أضواء خافتة، كسروا كل الخزائن المغلقة، جمعوا المحتويات في كيس قطني واحد ثم أشعلوا النار بالغرفة ولاذوا بالفرار، تناول كبيرهم هاتفه وأبلغ رسالة بتمام التنفيذ، التقى بهم عند بوابة القرية الغربية بعدما اتصل بفتحي أن يوقظ القرية لإطفاء الحريق الذي طال منزل عمه صالح.. وبعد دقائق كان الكتاب والأوراق في حوزته، وترك الأموال للرجال ونصحهم بترك الزمام كله والعودة إلى مخابئهم، وعندما سألوه عن مصير المقيدين بكهف العقارب؛ ضحك بلا مبالاة قائلاً: اللي ربنا كتبه ليهم هيشوفوه.. وانطلق يساعد الجموع في إطفاء الحريق بهمة ونشاط، كان يوماً عصيباً على القرية كلها ألسنة اللهب تخرج بألوان الطيف والشباب يعمل بجد وإجتهاد علي إخمادها والشيوخ تحفز

وتعين.. النساء ينزحن المياه من الترعة الكل خائف مضطرب.. صاحب الفقر خائف أن تطول النار خرينه البسيط من القمح، وصاحب الغنى خائف علي بيته وأثاثه، انبعث صوت هادئ يأمر الناس بإبلاغ المطافي؛ تلقته الآذان بلا اكتراث والألسن بالسخرية، من سيعرف للترسانية عنواناً وهي قرية تائهة في دروب الخريطة المتشابكة وكأنها على يسار الدنيا، حتى أن أهلها احتاروا أهي قرية أم عزبة أم نجع.. يحضر حمدي الرمال للمساعدة في إخماد الحريق.. وفتحي يحشد الناس وروحيه تصرخ في شرفة حجرتها لا تستطيع النزول والنار قد أكلت المندرة والزريبة وصومعة القمح.. صعد فتحي يلفها برداء ثقيل ويهبط بها غير مكترث بالنار والأخطار حتى انطلق لسان أحد الشباب قائلاً: آه من عيلة فتح الله إيد واحدة مهما حصل...

(26)

مر اليوم الرابع ثقيلاً يأست أناتهما أن تجد آذاناً فصمتت، فسد الطعام وأسنت المياه، كلما جاعا بكا؛ لأنهما سيكونان مضطرين إلي دس أفواهما فى قصعة الطعام الفاسد كالماشية؛ الأيدي موثوقة بالحديد، إن لم يهلكهما الجوع والعطش ستفتك بهما الهوام، أو يأتيهما الموت اختناقاً فالهواء يتناقص تدريجياً.. حسن ينتابه الخوف في انتظار نهايته الفاصلة؛ موت بطئ ثقيل بثقل تلك الصخرة التي دفعها الرجال علي الباب وغادروا.. حسين يستدعي الأوراد من الذاكرة ليرددها؛ ما تنبه إلا في تلك اللحظة أنه قد هجرها منذ أعوام؛ وقتما هبط من خلوة السطح وقد شغلته الدنيا وزخرفها وبات الشيطان أنيسه بعد حادثة تغيير الكتاب، الغريب أنه مع ترديد أوراده يشعر وكأنه ثوب يغسل من أدرانه فيهدأ، فيرفع صوته عالياً عله يطمئن أخيه بها، فيناشده الصمت كي لا يجف ريقه والماء قليل؛ فلا يستجيب ويرفع صوته أكثر.. أغلق البشر أبوابهم وباب ربه مفتوح لا يغلق أبداً، يدعوه أن يكشف الضر فقد انقطعت كل الأسباب، ظل يدعو الله حتى غاب في

نوم عميق، وتبعه أخوه سريعاً وكأن عدوى الاطمئنان قد انتقلت إليه..

*****

(27)

<u>**يوسف**</u>

على أعتاب القرية متلهفاً فقد قطع الطريق بقلب طائر حالم يدفعه الشوق إلى الأحباب وتحدوه الأمنيات، تمنى أن يملأ عينيه برؤية ثريا فقد طال الشوق إليها وقد قلت مراسلاتها له حتى إنقطعت؛ كانت لا تجيد المراسلات الحديثة وترفضها فترسل إلى عم خلف كي يكتب لها مكتوباً وترسله بالبريد، دائماً ما تبدأ خطابها بكلمة (يوسف/ ياللي قلبي شافك قبل عيني) تمنى أن يرى كل أولاد اللمة بعدما كبروا، أكلت الغربة أجمل سنوات عمره ولكنه عاد محملاً بالمال والخبرة درس كيفية الزراعة فى أسوء البيئات، وكيف أنه إستطاع أن يجعل من صحروات قاحلة جناناً خضراء، يتابع أخبار آل فتح الله عن بعد حتى أنه تذكر حسين وقال في نفسه: هو يبني وأنا أزرع هكذا علمنا فتح الله، تزداد خطواته سرعة حينما اقترب من البوابة الغربية للقرية؛ فقد قرر برغم تلهفه للقاء أن يقطع الطريق من المحطة إلى القرية مترجلاً كي يمتع عينيه وقلبه بالذكريات، والنهار مازال طويلاً ولن يخشى على نفسه من وحشة الطريق، فقد اعتاد على الوحشة في

بلاد غريبة، مر بمحاذاة الوردانية فتذكر أباه وطلب له الرحمة والغفران ثم حدثته نفسه أن يدخلها لزيارة قبور عائلته فاستجاب لها على الفور، ظل يسير على هدى الذاكرة فترشده مرة وتضلله مرات؛ بدأ يعي أن خريطة الدنيا قد تغيرت حينما ضل الطريق إلى قبر أبيه، ولم يصل إليه إلا بعد أسئلة عديدة تبعتها دعوات للغذاء والشاي من أهل الوردانية الطيبين، حاول الاسترشاد بمحرك البحث على هاتفه مراراً ولكن المكان مازال غير موجود عليه، لم يبق أمامه سوى أن يقطع أرض الرجل الصالح بطولها كي يكون أمام بوابة الترسانية، ظل يسلي طريقه ببعض الأوراد التي حفظها عن ثريا: (يا مطلع علينا فوضنا الأمر إليك.. ومن بغي علينا لا نشكو إلا إليك.. يا عالم بكل علوم.. يا سامع دعا المظلوم.. لا تجعل في حضرتنا لا شقي ولا محروم.. حسبي ربي جل الله مافي قلبي غير الله) أخذته جمال الكلمات فهامت روحه وضلت أقدامه وانعطفت حتى وجد نفسه كبقعة زيت وسط بحر أصفر.. يلتفت يميناً ويساراً لا يجد إلا صحراء الرجل الصالح المترامية الأطراف، يحتفظ بهدوءه كلما جال بخاطره أنها صحراء الرجل الصالح؛ فهو لم يصله بعد ما استجد عليها من أسماء- أرض العقارب- متاهة آل فتح الله ومحبس شبابها.. ظل يجري في كل اتجاه حتى كلت أقدامه، فبدأ الخوف يتسرب نحو قلبه

فلم ير ظلاً لإنسان إلا طبعات أقدام قديمة باهتة فوق الرمال الناعمة، هل يمكن أن يتوه بين قرى أهله، فقد كان منذ وقت قصير فى ضيافتهم وعلى شفير قبور أعمامه يبتهل، هل هذه هي نهاية يوسف الذي طالت غيبته؟ أعمل حواسه كلها يدقق بالبصر ويصغي بالسمع ويعصر الذاكرة، الآن فقط علم سبب دوران السيارات حول القرية للدخول من بوابة الشرق، يبدو أنها أكثر أماناً، يخرج هاتفه فلا يجد أي إشارات حتى أن تطبيق البوصلة قد تعطل، والوقت يمر ولو حل عليه الظلام في مكانه لكان من الهالكين، التقط سمعه صوت يشبه صوته يردد نفس الأوراد؛ حتى ظن أنه الصدى فسكت، ولكنه مازال يردد، انتابته قشعريره خوف ورجاء يختلطان.. سار في اتجاه الصوت حتى سمعه يعلو قادماً من كهف مغلق مخيف، زعق بصوت عال: مين اللي جوه .. فسمع الحمد والتكبير يعلو من الداخل، ظل يدفع الصخرة العملاقة بجسده كله وهم يساعداه من الداخل بأقدامهم؛ جال في خاطره أنهم من أهل الجن ثم طرد هذا الخاطر سريعاً حين قال لنفسه: وهل الجن تعرف الأوراد؟ نجح بعد جهد كبير ليخرج عليه من الداخل رجلان يغلفهما التراب

-انتم مين؟ وإيه اللي دخلكم هنا؟..

-حاول تحل أيدينا الأول وإحنا هنقولك كل حاجه..

حينما سمع الصوت عن قرب ظن أنه قد سمعه من قبل، فلو لم يقل له عم خلف أن خاله صالح قد مات لظنه هو، جاهد في إفلات القيد الحديدى من أيديهما حتى نجح بالكاد، ولما علم منهما أنهما أولاد خاله صالح غاب في أحضانهما كمن يبحث عن رائحة عزيز غائب..

-أنا يوسف إبن عمتكم ثريا..

فبكى حسين وصوت داخلي يتردد في صدره: رحمك الله يا ثريا أرسلت لنا يوسف بعدما رددنا أورادك..

ظلوا يتسامرون سائرين في البحث عن طريق العودة فعلم يوسف كل ما مر من أحداث، كما علم أنه قد وصل متأخراً ولن ينعم بحضن ثريا بعد اليوم، فاضت عيناه فاحتضنه حسن يشد على ساعديه، وحسين يربت على ظهره، فالتفت ناظراً إليهما يقول:

-ممكن يكون منصوب لكم فخ جوه ولو دخلتم معايا فيه خطر على حياتكم..

-وانت شايف إيه؟..

-نشوف طريق يرجعنا الوردانية عند أهلنا هناك، نرتاح ونفكر ونكون وسطهم في أمان..

وافقوه الرأي وسار حسن أمامهم لأنه أقدرهم على استنباط الطريق...

(27)

لأول مرة منذ عهد بعيد وقوات الأمن تملأ دروب العزبة وحواريها، حادثة مدبرة بلا شك؛ وليس أمام فريق البحث إلا أن ينظر إلى الجميع بعين الإتهام، حريق هائل أتي على رأس مال عائلة فتح الله ومصرع ثلاثة من الحراس محروقين ومقيدين بحظيرة الماشية، وإختفاء يلفه الغموض لعميد العائلة وأخيه، هذا ما دون في محاضر التحقيقات حتى الآن، مازالت روحية تتلقى العلاج في بيت سليم الذي عاد بعد إبلاغه بالكارثة التي حاقت بالعائلة، يقضي ليله الطويل جالساً أمام سريرها يبكي، الترقب يقلق منام فتحي، ولكن حمدي على العكس تماماً قلبه في قوة الصخر؛ لم يرتد طرفه بندم ولا وجل، سحر لا يعجبها اهتمام زوجها بأم الطامعين، شامتة فيما آل إليه حالهما، ولكنها تنتظر حتى لا تفجر مشكلة كبرى قد لا تكون في صالحها، صابر وآمال يتابعان كل يوم أعمال إزالة آثار الحريق، تري آمال أنها ترد الجميل لصالح الذي بني لهما البيت دون أن يشغلهما بمجهود ولا نفقة، وصابر طوال الوقت لا تفارق عيناه وعقله فقرات اللعنة في كتاب فتح الله، الخوف والقلق يفتت قلبه من أن يكون أصل هذا

الخراب خارجاً من ظهره، حالة من الاضطراب تؤثر على الجميع، هدهد يغلق المقهى قبل العشاء بأوامر البوليس، والناس تغلق أبوابها وأفواهها خوفاً من أن تطولهم التحقيقات، شباب القرية يشكل فرقاً للبحث عن الحسن والحسين في كل الدروب والمزارع والمصارف وغابات الهيش، أذاعوا فى كل مساجد القرى المجاورة حتي المركز أن من عنده معلومة عن الغائبين يدلي بها، مسح شامل لأرض الرجل الصالح طوال فترة النهار، فكروا أن يسافر أحدهم إلى أسوان حيث مقر عمل حسين ولكنهم عدلوا عن الفكرة حين حضر أحد عماله من هناك للسؤال عن أسباب انقطاعه عن العمل، مل الجميع من انتظار ظهور الحقيقة حتي تمنوا أن تغلق التحقيقات ولو ضد مجهول؛ كي يعود إلى القرية هدوءها وأمنها..

*****

دخل الترسانية من بوابتها الشرقية كعادة أهلها بعدما اطمئن على أحوالهما في مكان آمن، إستقبلته الناس جميعاً من يعرفه ومن لايعرفه فالكل قد علم أن لثريا ولد مسافر، خرج الشيخ خلف يتكأ على عصاته يتلقفه بالأحضان من بين أيدي الرجال، والجميع يفسح له الطريق؛ فهو لم يخرج من بيته إلا لأمر جلل هذا الشيخ الذي

اعتاد أن تأتيه الناس ولا يأتيهم.. يخرج لملاقاة يوسف وهو لم يطل من النافذة والقرية تحترق.. دعاه إلى بيته فاستجاب على الفور وظل يتبع خطواته البطيئة حتى ولجا من الباب الخشبي وأجلسه على بساط القش المجدول فى المندرة الداخلية هذا ما أصر عليه عم خلف حتى يكون حديثهما بعيداً عن كل أذن مترقبة، مد يده في صندوقه الخشبي وأخرج كتاباً قديماً أنهكته كثرة القراءة، ثم جلس بجواره علي عدة حركات وكأنه الجمل حين يتأهب للهبوط إلي مبركه ثم أعمل عينيه في وجهه قائلاً:

-خالك أبوالفتوح إداني الكتاب ده وقالي إديه للى تحس إنه يستحق يشيل أمانة فتح الله..

-إزاى الكتاب دا معاك.. واللى معاهم دا إيه؟..

-اللى معاهم دي نسخة صالح، وسلمها لأولاده.. وطمع الدنيا خلاهم زيفوه والشيطان هيأ لهم أنهم صح..

ظل يستمع متعجباً كيف لأولاد الحواديت أن يصلوا إلى هذا الحد من الإهمال والطمع؟ رأسه مثقلة بألف سؤال هل لو كان بينهم فيما مضي من أعوام مع أي الفريقين كان سينتمي؟ هل يستحق هذه

الأمانة حقاً؟ أم أن ظروف الغربة هي من جعلته الأفضل؟ تناول الكتاب ودسه في جيب حقيبته الخارجي وهم بالخروج بعدما أذن له بالذهاب تشيعه كلمات أخيرة من الشيخ: شوف ابن الحرام وأرميه بره العيلة وحقق العدل كل شئ يرجع تاني يا يوسف.. عاد فإلتفت إليه مبهوتاً يلوي شفتيه قائلاً: ابن الحرام؟ ثم إنطلق دون إلحاح في السؤال علي إعتبار أن الرجل كبير السن ولابد أنه يهذي، تفهم الرجل موقفه فلم يعطه كلمة إضافية..

خرج من الباب الخشبي وقد أكسبه هذيان الشيخ خلف حيرة إضافية وعبئ ثقيل، تمتد أسئلته تعبث بخلايا عقله، كيف له أن يتحمل عبئ عائلة لا ينتسب لها وما يربطه بها سوى البطن وليس العصب؟ وصل إلى دار فتح الله فوجد العائلة مجتمعة يبدو أن خبر وصوله قد سبقه تعرف على من لا يعرفهم وتذكره من نسي ملامحه، تسابقوا على دعوته للاستراحة في منازلهم كما تتسابق الغزلان على النبات الطيب.. ولكنه أصر على النزول في بيت أمه، تسلم المفتاح منهم واستأذنهم في أن يتركوه كي يستريح في سرير ثريا علي أن يلتقي بهم في المساء، تركوه وإستداروا وعلى وجوههم ابتسامة باهتة، ألقى نظرة سريعة على أطلال المندرة الصالحية التي اضطر الرجال إلى

هدمها للسيطرة على الحريق، انزلقت دمعة من عينيه فتلقاها على طرف أصابعه ثم فتح باب بيته وغاب فى جميل ذكرياته ودفئ طفولته المخبأة بين أركانه الأربعة...

(28)

أخيراً بدأ القلق يتسرب إلي نفسه بعدما عاد الشباب من رحلة البحث في أرض الرجل الصالح وتحدثوا عن كهف العقارب، وكيف دخله أشجعهم وما وجد فيه من بقايا طعام وشراب توشي بوجود إنساني فيه منذ وقت قريب، والناس بين مصدق ومكذب، حتى أصبح كهف العقارب محور أحاديث المقهي والحقل، شعر أن العقاب على جريمته بات وشيكاً، حتى أنه أصبح يهذي في كل ليلة كهذيان أبيه من قبل؛ تقوم آمال من نومها علي إثر صراخه ترقيه بالمعوذتين وفي نفسها خوف شديد على مخلصها الوحيد، بعدما يفيق تحاول أن تتحدث إليه فيتكلم بالقطارة، فتندب حظها في الزوج والولد وتقوم، أما سحر فلا تهتم بهذيان ولدها كثيراً فهي ترى من البداية أن الحظ قد أوقعها في عائلة مجنونة، ولكن ما يشغلها قليلاً هو البنيان الجسدي لمجنونها الصغير الذي بدأ ينهار فالوجه أصابه الذبول والجسد أصابه الإعياء؛ حتى فكرت أن تطوف به على الأولياء وأصحاب الخطوة، ولكنه رد عليها بإبتسامة سخرية ذليلة، وأخبرها بأنه قد قرر أن يسافر وأنه

من الغد سيذهب إلى يوسف كى يساعده في ذلك.. فبكت وندبت حظها كصديقتها ودخلت إلى حجرتها وألقت بوجهها أمام المرآة تتأمل خصلات شعرها التي شابت فتنزعها بقسوة..

****

ظل سليم ملازماً لأقدام روحية حتى استردت عافيتها، إلا من بعض آثار حروق متناثرة أكد الأطباء أنها لن تزول، انتهى صابر من إصلاح البيت وإعادة إنشاء المندرة الصالحية المهدمة، حتى أصبح جاهزاً لاستقبال روحية التى أصرت على الإنتقال إليه فور إعداده، ولجت من البوابة الكبيرة بأقدام واهنة، فقد أتت النار على ذكريات كثيرة حتى أنها ما عادت تشعر بأنفاس صالح كما كانت.. مازال قلبها مشغولاً على الغائبين.. بالرغم من أن بداخلها شعوراً لا تعلم له سبباً أنهما بخير، استقبلت يوسف بأحضان أم فقبل يديها وكلما هم أن يطمئن قلبها على الحسن والحسين خاف أن يتسرب الخبر إلى القتلة فيفروا بفعلتهم الشنعاء.. خاصة وأنه أراد أن يعاقبهما معنوياً قبل أن يسلمهما إلى العقاب البدنى المناسب، إطمئن على حالها وغادر..ولما وصل إلى باب بيته وجده واقفاً في إنتظاره يفرك كفيه كتلميذ بليد..

-عاوز إيه يا فتحى أنا مش فاضي لك دلوقت..

-أنا كنت عاوز حضرتك تساعدني أسافر..
إبتسم إبتسامة عريضة وأمأ برأسه قائلا: أنا مش هسافر إلا وأنت في إيدى بإذن الله بس أبوك وأمك يوافقوا..

شكره فتحي وطار فرحاً صوب قهوة هدهد.. دخل البيت مسرعاً، أنار أضواءه كلها بحث بين كراكيبه القديمة عن آله الهارمونيكا وظل يعزف ألحانه حتى تفصد عرقاً..

****

وكما توقع الجميع إنتهت التحقيقات بتسجيل الواقعة ضد مجهول؛ وخصوصاً بعد ظهور أولاد صالح وإقرار حسن بأنه كان في صحبة أخيه بالصعيد وأكد ذلك بالشهود، كما لم يتهم أحداً بعينه ولكنه أقر بأن محتويات المندرة قد نهبت وهذا ما جعل اللصوص تقوم بإشعال النيران للتغطية على الجريمة كما أثبت في أوراق التحقيقات فقدان حجج الأطيان ومقتنيات العائلة الخاصة بالسرقة أو بالحريق..

عاد الحسن والحسين بعدما أكد لهما يوسف أن الفئران مذعورة ولا خوف منهم ولا وزن لهم، ظل يغذي الخوف في قلوبهما حتى أصبحا كالمجانين؛ يلقي كل منهما بالتهمة على الآخر لتبرئة نفسه، وعادة

لا تظهر المسروقات إلا عند إختلاف اللصوص، إضطر فتحي أن يقف أمام أبيه مطأطئ الرأس معترفاً بكل شئ، متهماً حمدي أنه من دبر الأمر كله وهو من ساعده فقط، نصحته أمه بالهرب في بلاد الله الواسعة ونصحه أبوه أن يسلم نفسه للبوليس، كما أخبره بأن إخفاء حسن للأمر ما جاء إلا لأنه يريد الإنتقام منه بطريقته الخاصة التي هي بالتأكيد أشد ضراوة مما سيراه في السجن، الخوف يأكل العقول والقلوب، لأول مرة تضطر سحر أن تفكر فى إنسان آخر غيرها، لأول مرة تشعر بأن الله يعاقبها على شنيع أفعالها بإضاعة ولدها الوحيد، تبكي.. تتوسل..ترفع كفيها للسماء تناشد الله بحق الفقر والحرمان التي عاشت فيهما جل عمرها أن يعفو عن ولدها، تذكرت حكايات الجارة العجوز التي قصت لها وهى في عمر الصبا كيف أنقذتها من بين أفواه الفئران وهي طفلة صغيرة، بعدما إنشغلت عنها الأم بالخدمة في أرض الباشا نظير عائد هزيل يكفي الطعام بالكاد، تداخلت أمامها كل مشاهد الإستسلام والتسليم بالقوة تارة وبالموافقة تارة أخرى؛ حتى كرهت جسدها وتساوت عندها الرغبات بالنكبات، واختلط الخير بالشر حتى صارا بلا قيمة وبلا معنى؛ كل ما تصبو إليه أن توفر لنفسها حياة أقرب من حياة ذلك الجرذ الذى أتى على إبهامها؛ ليترك لها شهاده فقر وهوان ممزوجة بدمها ولحمها إلى نهاية المدى..

****

(يقطع الشجرة أول ولد من حرام)

يصرخ صابر مردداً فقرة الكتاب الوحيدة التي حفظها تبكي آمال وتصك وجهها تناشده الصمت، يتركهما حمدي ويندفع من الباب هارباً؛ يقطع الطريق بسرعة اللاوعي نحو البوابة الغربية تركه صابر عله يستطيع الفرار بجريمته وألقى ببدنه الذى أثقلته الهموم علي الأريكة يعصر رأسه بكفه، ليس أمامه مفر من لعنة الكتاب التى أصابته؛ فما عاد يجدي معها هذيان ولا إغماء، وعيه هذه المرة يأبى أن يغيب، ينظر إلى كفيه الذى لطالما أطعمه بهما حلو الطعام حتى يسمن؛ بذرة الحرام التى رواها بماء عمره، وما كان أمامه من مفر إلا أن يكون القاتل أو المقتول، تيبست الكلمات على الشفاه، كيف أهمل النصائح والحواديت وسار مغمض العينين خلف شيطانه؟ وما يدور فى عقله ليس بأقل مما يدور في عقل آمال، كيف أهملت نصائح سيدنا واندفعت خلف تراكيب الجسد البالية؟ صوت الصرخات المكبوتة فى صدرها أعلى من ضجيج آناتها.. ترفع رأسها لتجدها

واقفة بينهما فقد مرت من فرجة الباب التى تركها وهو يفر نحو الفراغ..

-سحر إيه اللى جابك هنا؟..

-إبنك ضيع إبني معاه يا طاهرة..

-إطلعي بره أحسن لك..

أخرجت كل منهما أسوء ما في حلقها من ألفاظ نابية.. تركهما يتعاركان وقفز خارجاً إلى ساحة صالح يدير ظهره للبوابة الحديدية ووجهه تلقاء بيت ثريا يصرخ بأعلى صوته يجمع آل فتح الله.. ينادى عليهم بأسمائهم حتى إلتف حوله الجميع ومن فوق الأسوار تتدلى رؤوس أهل الترسانية وكأنها ثمار شجرة الزقوم تترقب لما سوف تسمع كى تشيع؛ وما أن إكتمل المشهد أمام الجميع حتى تفهم يوسف الأمر فمد يده نحو فمه يغلقه ورفعه الحسن والحسين إلى قلب المندرة الصالحية.. بات مقيداً بأذرع الرجال حتى هدأ وإنفجر باكياً.. تركوه يتمدد علي أريكة صالح التى ما إستطاعت النيران أن تنال منها إلا بتغيير لونها فقط، فقال بصوت متقطع: إبنى هو اللى عمل الخراب دا كله، وأنا مستعد للحساب بداله..

فضحك يوسف وكأنه كان ينتظر ذلك اليوم ثم قال: محدش بيدفع حساب حد يا أبن خالي..

باب المندرة يطرق طرقاً شديداً ويصوت عال يقول: قفلتوا الباب يا أحفاد فتح الله ونسيتوا إبنه بره..

فتح يوسف الباب والإبتسامة الساخرة لا تفارق وجهه قائلاً: آخر العنقود اتفضل..

ساد الصمت طويلاً والحزن يقطف الوجوه، وكأنها ساحة محكمة يجلس الحسن والحسين ويوسف ويقف سليم وصابر مطأطئ الرؤوس بخيبة الجريمة، وفي داخل كل منهما أمنية –أن يموت الأن–

الكبار في محكمة الصغار.. إيه يا فتح الله لقد قلتها يوماً وما وعتها العقول: يكبر الكبير بالطاعة ويصغر بالجريمة.. أى أصل أنت؟ وأى جذور هم؟..

سقط سليم فما عاد يتحمل قلبه السقيم كل هذه الآلام، فقد استجاب الرب دعاءه؛ وعلى سرير المشفى يخبرهم الطبيب أن كل شئ قد انتهى؛ قطع آخر العنقود، عله يلتقي بأوله، تصرخ روحية وتضرب فخذها بكفها وكأنها تود أن تقول: هنا كان ينام، يجلس صابر على

الأرض بين مقاعد المشفى المليئة بالبشر؛ يتذكر يوم تمرده الأول وكيف تخطاه في المجلس ليكون تحت أقدام فتح الله، سبقك يا صابر كعادته دوماً..

يجمع فتح الله أبناءه من الدنيا، تاركاً خلفه أحفاداً تائهين بعيون باكية وقلوب تتمنى اللحاق.. كيف يطيب المقام بين القاتل والمقتول؟!...

السيرة الذاتية للكاتب



- هو / إبراهيم معوض أحمد السيد

- قاص وروائي مصري

- يقطن/ المنوفية - مركز تلا - قرية طوخ دلكة ..

- عضو نادي أدب شبين الكوم

- نائب رئيس تحرير مجلة همس مصر الإلكترونية للشعر والأدب ورعاية المواهب

- فائز بجائزة النشر الإقليمي فرع ثقافة المنوفية لعام 2019/2018 بمجموعة قصصية بعنوان (خارج حدود الرؤية)

صدر له

خارج حدود الرؤية (مجموعة قصصية)/ عن الهيئة العامة لقصور الثقافة

أحداث ما قبل الرصف (مجموعة قصصية) / عن مؤسسة النيل والفرات للنشر والتوزيع

تحت الطبع

الدوائر المغلقة (رواية)

أحلام أهل الزمام (رواية)